طه حسين رائدا للحداثة في اللغة والثقافة العربية:

دراسة تحليلية

Taha Hussain Raidan Lil Hadatha Fi Al-Luga Wa Al-Tthaqafa Al-Arabia:

Dirasah Tahliliyah

TAHA HUSSAIN AS A PIONEER OF MODERNITY IN ARABIC LANGUAGE AND CULTURE:

AN ANALYTICAL STUDY

بحث جامعي لنيل شهادة ما قبل الدكتوراه

الباحث

حامد رضا

تحت إشراف

د.محمد قطب الدين

مركز الدراسات العربية والإفريقية

كلية اللغة والأدب والثقافة

جامعة جواهرلال نهرو

نيو دلهي، الهند – 110067

2015

مركز الدراسات العربية والإفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi - 110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067
Gram: JAYENU Tel : 26704253 Fax : 91-11-2671 7525

22 July 2015

DECLARATION

I declare that the dissertation entitled "**TAHA HUSSAIN AS A PIONEER OF MODERNITY IN ARABIC LANGUAGE AND CULTURE**" submitted by me is in the partial fulfilment of the requirements of the award of the degree of master of philosophy of this university. This dissertation is my original research work and has not been submitted for any other degree of this university or of any other universities/institution.

Hamid Raza
(Research scholar)

22/7/15
DR.MD.QUTBUDDIN
(Supervisor)
CAAS/SLL&CS/J NU

Prof. MUJEEB RAHMAN
(Chairperson)
CAAS/SLL&CS/JNU

مقدمة

من معالم اللغة والثقافة إنهما تمران بمراحل مختلفة منذ البداية وفقا للفطرة وطبقا للطبيعة،وتطويان عهودا متعددة في حياتهما حسب مقتضيات الزمان وحاجات الناس،ليس لهما الاستقرار ولا الجمود والتعطل ما دامت تدب فيهما الأنفاس والأرواح،بل هما في السفر والحركة دائما،مرة تكونان بين ازدحام العلوم واللغات والثقافات والاحتشاد منها،فتفتحان الصدور وتستقبلان مميزاتها وتضمان الألفاظ والمعاني وغيرها إليهما،كما تعطيانها ملامحها،وارتساماتها، وأخرى تكونان في الاعتزال والانزواء،فتعرضان عن الإعطاء والتسلم،وتجتنبان من اللقاء والتعرض، وهذا السفر يدل على أن لهما الحياة والنشاط والانتعاش،وأنهما تقبلان ما يعطي لهما الزمان من التغيير والتجديد وتتلقيان ما يهب لهما الناس من التبديل والتحديث.

وإن الجدة مصطلحة نسبية،أي ما يكون جديدا في هذا العصر،ذلك يكون قديما بالنسبة إلى العصور القادمة،وما يكون قديما لنا،يمكن أنه كان حديثا بالقياس إلى العصر القديم.وإن الناس في كل عصر من العصور سيتفرقون بين ثلث فرق وجماعات؛فريق يؤيد الحداثة فيسرف في التأييد،فيجاهد في سبيلها ما أمكنه الجهاد،وفريق يدعم القدامة فيغلو فيها،فيحاول في سبيلها ما وسعته المحاولة،وفريق يتوسط بينهما ويتخذ سبيل الاعتدال ويتحذر من الإفراط والتفريط،ومن الإطالة والتقصيير.وإن اللغة العربية قد رأت ما كان لها النزاع بين أنصار المحدثين وأشياع القدماء في العصر القديم،فتفرقوا في بداية القرن الثاني للهجرة بين أنصار الجاهليين والإسلاميين،ثم في منتصف القرن الثاني للهجرة بين مؤيدي العرب جاهليين كانوا أو إسلاميين والمحدثين،أي بين بشار وتلاميذه وبين امرئ القيس وتلاميذه،ثم في القرن الثالث بين من كان ينتصر للبحتري وأبي تمام وبين من يميل إلى أبي نواس ومسلم،وثم في القرن الرابع للهجرة بين أشياع المتنبي وأشياع أبي تمام.فلللغة والثقافة العربية اتصال وثيق بالصراع بين القدامة والحداثة،وهذا العراك سيجري ما دامت لهما الحياة وما دامت لهما قوة وأهلية لقبول التجديد

والتغيير،وإنهما ستدفعان إلى الانجماد والموت يوم ضاعت هذه الصلاحية لهما،ويوم أعرضت أهلهما عن هذا النزاع الصحي والعراك المقوي.

ولدت اللغة والثقافة العربية في الجزيرة العربية،ونشأتا فيها،ثم خرجتا من الجزيرة بعد أن أشرقت فيها شمس الإسلام،وسرعان ما بلغتا إلى بلاد أخرى من آسيا فأفريقيا فأوربا،وكان العصر العباسي الأول من عام 132ه إلى عام 232ه من عصور ذهبية في تأريخهما،في هذا العصر كانت لهما الفتوة والشباب،والغضاضة والنضارة.ثم أخذتا في الانحطاط والانحدار،بسبب تفريق كلمة المسلمين والخصومة والنزاع فيما بينهم على أساس اللغة والثقافة والمنطقة.أما اللغة العربية فهي صارت لغة التكلف والتزيين ولم تتلق من اختراع ولا إيجاد حسب الموضوع والأسلوب،وعلى جانب آخر انحصرت الثقافة العربية من أطراف العالم الإسلامي واستقرت في بلاد عربية فقط.ثم جاء العصر الحديث من عام 1799م وهو عصر الترقية والازدهار في كل ضرب من ضروب الحياة وفي كل جانب من جوانبها، شهدت اللغة والثقافة العربية في هذا العصر حداثة وتجديدا في كل فن من الفنون وفي كل صنف من الأصناف،وذلك بسبب التأثر والانفعال باللغات والثقافات الأوربية الراقية، ولازدياد الاقتراب بها.وقد ساهمت مختلف البلاد كتابها ومفكروها في الإتيان بها،إلا أن بلاد مصر أدت دورا بارزا في هذا الأمر بسبب كونها مركزا علميا وأدبيا في العصر الحديث،وبسبب كون العلاقات بينها وبين أوربا أوثق وأقدم وأعرق من أي بلاد عربية أخرى.فنجد على أفق اللغة الثقافة العربية أسماء كثيرة للذين حاولوا أخلص محاولة وأمحضها في هذا الصدد،منهم رفاعة طهطهاوي المتوفى سنة 1873م،و محمدعبده المتوفى سنة 1905م، وقاسم أمين المتوفى سنة 1908ه، وعباس محمود العقاد المتوفى سنة 1964م،وغيرهم.

وقد امتاز طه حسين بين جميع أقرانه ومعاصريه بسبب مجهوداته الكثيفة، ومآثره المتنوعة وثقافاته العديدة، وأعماله التنفيذية،وأفكاره الإبداعية في ميدان العلم والبحث والاستقصاء؛هو

رفض تمام الرفض معايير قديمة معروفة بين العلماء للبحث عن أمور علمية وشؤون فنية،واتخذ طريقا جديدا له،وهو طريق الشك والريب الذي اخترعه المفكر الفرانسيسي الكبير ديكارت المتوفى سنة 1650م، لذلك هو شك في الأدب الجاهلي وأنكر معظم مشتملاته التي معروفة بين أوساط أهل العلم والفن.ثم هو عين خططا ومشروعات بالإسهاب والتفصيل للتعلم والتعليم منذ البداية إلى النهاية في كتابه المعروف بـ "مستقبل الثقافة في مصر"،إنها مفيدة لكل بلاد،ويمكن تنفيذها في كل منطقة. كان طه حسين يعطي اللغة والثقافة العربية مكانة مرموقة ومنزلة سامية حيث تبلغ اللغات والثقافات العالمية الراقية الأخرى؛هو كان يعتزم على أن يطلقهما من قيود الدين وأصحابه،فخالف أشد المخالفة وأكبرها أن تكون اللغة العربية لغة دينية فقط وأن تكون ثقافتها ثقافة دينية دون غيرها.حتى تتعرض للتقديس والاحترام،ولا تتطور فيها ثقافة الانتقاد والمؤاخذة.ووفقا لنظرياته أن قراءة اللغة والثقافة العربية والإلمام بقواعدها النحوية والصرفية لا تكفي للأدب العالي المتطور؛لأن أدب أمة لا يكون تاما إلا إذا عرفنا تأريخه ومراحله المتعددة بين الترقية والتدهور منذ البداية خير معرفة،وإلا إذا علمنا العلوم الأخرى التي تؤثر الأدب وتتأثر به مثل الفسلفة والحكمة وعلوم السياسة والاجتماع وغيرها.واللغة والثقافة العربية تكونان ناقصتين ومقطوعتين إذا لم نعرف اللغات الأخرى مثل الفارسية واليونانية والرومية وثقافاتها وفلسفتها وحكمة هندية لأن لكل منها أثر كبير في لغتنا وثقافتنا.

طه حسين قائد لحركة الحداثة والتجديد في اللغة الثقافة العربية لأسباب متعددة؛منها أنه كان ذا ثقافات عديدة ولغات شتى؛هو سافر إلى فرنسا فتعلم اللغة الفرنسية واللغة اللاتينية واللغة اليونانية،وعرف تواريخها وعلاقاتها مع اللغات الأخرى خير معرفة وأحسنها،وحصل على شهادات الدبلوم والدبلوم العالي فيها كما كان على إلمام تام باللغة والثقافة العربية ومختلف عصورها بين الازدهار والانحدار.منها أنه وفق أن ينفذ ما كتب ومافكر،ولم يوفق غيره أن ينفذ أفكاره،لأنه صار وزيرا للتعليم سنة 1950م،وجعله مجانا مثل الهواء والماء وقال إن الديمقراطية الحقيقية تكون إذا كان التعليم مجانا للجميع،وفتح أبواب الجامعات لكل مواطن بغض الطرف

عن أديانهم ومذاهبهم وجنسياتهم.ومنها أنه لم يحفل بازورار شخص ولم يكترث لجهومة رجل إذا رآى أن الأمر لا يوافق الحقيقة والصدق وفي هذا السبيل كان مستعدا دائما لتحمل المشاق ومواجهة المصاعب،فكان جريئا وشجاعا إلى حد مغامر.لأجل هذه الأسباب المهمة هو قائد للحداثة في اللغة والثقافة العربية في العصر الحديث.

وقد لاحظت خلال الدراسة أن هذا الموضوع على ما له أهمية بالغة وعلى ما له من قدر عظيم ،لم يمسه الباحثون،ولم يتناولوه بالبحث والمناقشة،وأنه قد تمت مطالعة طه حسين وشخصيته من زوايا أخرى ولكن هذه الزاوية من شخصيته كانت مختفية ومتروكة،وهذا هو السبب الذي دفعني إلى اختيار هذا الموضوع "طه حسين رائدا للحداثة في اللغة والثقافة العربية"،وإنني سأحاول تمام المحاولة أن أودي حق هذا الموضوع بفضل الله وكرمه.

وقد قمت بترتيب هذه الدراسة في ثلثة أبواب؛الباب الأول يتكلم عن اللغة والثقافة العربية،فيه فصلان:الفصل الأول عن اللغة العربية وتأريخها منذ البداية إلى الآن،والفصل الثاني عن الثقافة العربية ومصدرها.والباب الثاني يتحدث عن الدكتور طه حسين حياته وأعماله وقيادته في المجيئ بالحداثة في اللغة والثقافة العربية،وهذا الباب يشتمل على ثلثة فصول: الفصل الأول عن حياة طه حسين وأعماله،والفصل الثاني عن آراء رجال الأدب والنقد عن طه حسين،والفصل الثالث عن قيادته في المجيئ بالحداثة في اللغة والثقافة العربية.والباب الثالث يتناول الحداثة في اللغة والثقافة العربية،فيه ثلثة فصول:الفصل الأول عن التعريف بالحداثة ومصدرها في الأدب العربي، والفصل الثاني عن الحداثة في اللغة العربية، والفصل الثالث عن الحداثة في الثقافة العربية وفي نهاية الأمر خاتمة.

وفي نهاية المطاف إنني أسدي كلمات الشكر والامتنان إلى كل من ساعدني في إتمام هذا البحث من الأساتذة،وخاصة مشرفي العطوف وأستاذي الكريم الدكتور محمد قطب الدين_أطال الله عمره وحفظه من كل بلية ومصيبة_ الذي لم يدخر وسعا في إعانتي كلما احتجت إليها،وفي

توفير الكتب القيمة من مكتبته الذاتية،ثم هو أكرمني دائما بمشوراته الثمينة وآرائه المفيدة في حين إلى آخر. كذلك أحب أن أشكر مكتبة الدكتور ذاكر حسين في الجامعة الملية الإسلامية دلهي الجديدة ومكتبة نظامية في جامعة حضرة نظام الدين أولياء دلهي الجديدة،استفدت منهما كثيرا،وأكملت بحثي بهما،وإنه يكون من المعاييب لو لم أشكر جميع الكبار والصغار من أصدقائي وأحبتي وزملائي من دعوا الله لي ومن وفروا لي الفرص المناسبة للدراسة والمطالعة،وأخص بالذكر الأخ البحث محمد ذكي الله _حفظه الله_،هو كان مستعدا غضون ساعات للمعاضدة والمساعدة، والأخ الباحث محمد مبشر حسن _ زاده الله علما وفضلا_ والأخت حسنى حسن _أكرمها الله_إنها وفرت لي فرصة غنيمة ورائعة جدا لإكمال البحث.

وندعو الله أن يقبل هذه الجهود الضئيلة في سبيل خدمة اللغة العربية وأن يجعلها مفيدة للدراسة والمطالعة.(آمين)

حامد رضا

رقم الحجرة 107،ماهي ماندوي هوستل،

جامعة جواهر لال نهرو،دلهي الجديدة- 110067

الباب الأول

اللغة والثقافة العربية

فيه فصلان

- نظرة عامة على اللغة العربية
- ثقافة العرب ومصدرها

الفصل الأول

نظرة عامة على اللغة العربية

جميع اللغات التي توجد في العالم اليوم كانت في البداية لغة واحدة، ثم عملت فيها عادات الفطرة و قوانين الطبيعة،فأخذ الناس يسافرون من أرض إلى أخرى،وصاروا على بعد من مركز واحد، فتغيرت اللهجات بينهم أولا ثم تعثروا على كثير من مظاهر الفطرة الجديدة مثل الحيوانات والأشجار، وتعرضوا للمواسم والمناخات التي كانت مختلفة مما أنسوه وألفوه،فوضعوا مصطلحات جديدة وأسماء حديثة لها،حتى صارت بعد زمان كل منها لغة مستقلة.

وقد قام علماء اللغات و الألسنة بالبحث عن أصل كل لغة من اللغات العالمية الحية،فوجدوا أنها ترجع إلى أصلين:اللغة السامية،واللغة الآرية.اللغة العربية و الكنعانية و الآرامية من اللغات السامية،و ترجع اللغة اللاتينية و اليونانية و السنسكرتية إلى اللغات الآراية، ثم تولدت جميع اللغات العالمية من بطون هذه اللغات فمثلا انشعبت السريانية والأشورية من الآرامية و العبرانية و الفينيقية من الكنعانية، وإذا أعمقنا النظر أدركنا أن التشابه والتشاكل موجود بين اللغات التي جاءت من عين واحد فمثلا "أرض" في العربية "أرص"في العبرانية و "ثور" في العربية يكون "شور"في العبرانية.

ولم نجد تأريخ اللغة العربية و زمان تطورها و إنشائها قبل الإسلام واضحا بمأتين سنة،وكل ما يقال عنها إنما هو مؤسس على العقل والقياس والمنطق وهو مستعين ببعض الشهادات الحجرية والأدلة البنائية التي وجدت في اليمن والسوريا و الحجاز الشمالية،و ذلك لأن الأمة العربية عامة كانت لا تكتب و لا تقرأ بل هي تعيش حياة بدوية مقتنعة بالمحادثة و الكلام فقط. ويمكننا أن نقسم لغات العرب بين اللغتين:اللغة العربية الجنوبية و اللغة العربية الشمالية.كانت

اللغة الجنوبية ويقال لها لغة القحطانيين وأيضا لغة الحميريين تحدث في اليمن وما كانت تجاورها من المناطق،واللغة الشمالية وهي لغة العدنانين يتكلمها أهل الحجاز وأهل الصحراء،وكانت الفروق جلية بين اللغتين حسب الضمير والإعراب والاشتقاق،ولكن أسباب الاتصال و الاختلاط توجد بينهما في الألفاظ واللهجات،وذلك لعلاقات سياسية وتجارية بين الأمتين.وكان أصحاب اللغة الجنوبية مثقفين وأولي حضارة قديمة في العالم،عندهم كانت حكومة وسياسة وعلم وقراءة ،أما أخوانهم في الشمال فهم كانوا بدويين، لم يكن لهم حظ في الكتابة والسياسة،وكانوا يعيشون في الصحراء ومنقسمين في القبائل،ومن أهم فوائد لهذه البداوة حسب اللسان أن بقيت لغة أهل الحجاز أقرب إلى صورة أصلية و مصدر قديم بالنسبة إلى لغة أهل الجنوب،لأنهم كانوا محبوسين ومنحصرين في الصحراء،ولم يتعرضوا للامتزاج واللقاء مع الأمم الأخرى حتى يلحقهم الوهن والاضمحلال في الكلام خلافا لأهل الجنوب الذين كانت لهم أواصر قوية مع الآخرين،مما أسفر عن الفساد في اللغة و الضعف في البيان.

وفي نصف القرن الخامس الميلادي تدفق سيل العرم،فأطاح اليمن ومن كان فيها من السكان،وانتهى أمر الحضارة القحطانية،فتفرقوا في الجزيرة العربية،وانضموا إلى أهل الشمال،وسيادة اليمن صارت لقمة بين الفرس والأحباش،كل منهم نازعوا فيما بينهم للسيطرة و التغلب.أما القحطانيون فهم اعتزموا على أن يحكموا أهل الحجاز ،وأن يجبروهم على الإذعان و الانقياد للغتهم وثقافتهم ،ولكن القدر لم يوافقهم هذه المرة في الشمال كما ساعدهم في الجنوب،لأن العدنانيين كانوا أولي قوة وقيادة،في أيديهم كانت أزمة الحج والأسواق الأدبية و شؤون الناس الدينية،كما كانت البلاد المجاورة حليفة لهم لأجل التجارة،فأصابهم الكل و الوهن أمام العدنانيين،فكان الوقت مناسبا جدا لفرض لغتهم و ثقافتهم على المهاجرين من اليمن،وبعد زمان قليل من هذا التنافس والمسابقة جاء الإسلام والقرآن،فأعطي الثبات و الدوام للغة أهل الشمال وللهجة قريش.

وبالإضافة إلى القرآن والحديث،كانت دواعي أخرى أيضا لغلبة لهجة قريش على سائر اللهجات العربية،منها: الأسواق:تقام للبيع والتجارة في بعض الأشهر التي كان العرب من جميع الأطراف يقصدون فيها إلى مكة المكرمة،وكانت هذه المهرجانات مهبط الشعراء ومركز الخطباء،كانوا يجتمعون،فتجري المباهة والمفاخرة والمجادلة بينهم،وكل منهم كانوا يتعصبون لقبائلهم ولمؤيديهم. انتفعت اللغة العربية من هذا التنافس كثيرا جدا،ووقت أشعارها الذهبية وخطبها الحسنة من الامحاء والاندراس،والمعلقات الشهيرة التي نحن نجد اليوم مدينة لأسواق أدبية. و من أعرف هذه الأسواق كانت "عكاظ" و" مجنة" و "ذوالمجاز".

ومنها مركزية مكة ونفوذ قريش:كانت مكة عاصمة التجارة و التسويق،تقيم ههنا القوافل التجارية الحاملة السلع من الهند و اليمن، ثم العرب كانوا يبلغونها إلى أسواق السوريا و مصر،كما يقصدها كل عام بالتأكيد آلاف من العرب لأداء فريضة الحج والزيارة،وكانت أمور الإدارة والنظام في أيدي قبيلة قريش،وهم تجار أيضا،فاختلطوا بكثير من القبائل وامتزجوا مع كثير من الناس،فاطلعوا على لهجاتهم وتعثروا على طرق كلامهم،فوضعوا لأنفسهم أنسب اللهجات وأسهلها وأعذبها وخلفوا أثرا بالغا على جميع القبائل و التجار،وكانوا في منزلة الأحترام و التكريم حيثما نزلوا،فارتقت لهجتهم ونمت وقبلها الناس وتداولوها.

ويمكننا أن نقسم مراحل الأدب العربي التي مر منها في خمسة أعصر مهمة، العصر الأول: العصر الجاهلي، و هو عصر ما قبل الإسلام بمأتي سنة. العصر الثاني: العصر الإسلامي،ونستطيع أن نقسم هذا العصر بين العصرين: عصر صدور الإسلام وهو من غرة الهجرة إلى نهاية الخلافة الراشدة أي من 1هـ إلى عام 40هـ، والعصر الأموي منذ انفجار الخلافة الأموية سنة41هـ إلى انهيارها سنة 132هـ،العصر الثالث: العصر العباسي، وفيه عصران أيضا،العصر العباسي الأول من سنة 132هـ إلى سنة 332هـ،والعصر العباسي

النهائي من سنة 332هـ إلى سنة 656هـ،العصر الرابع: العصر العثماني،من عام 656هـ إلى 1258هـ والعصر الخامس:العصر الحديث هو يبدأ من عام 1798م.

كانت اللغة العربية في العصر الجاهلي أكثر تطورا في الشعر منه في النثر،والناس ذلك الوقت اهتموا بالشعر أكثر من النثر، لكل قبيلة كان الشعراء والخطباء الذين كانوا يدافعون عن كرامة قبائلهم وشرفهم ويرفعون أعلام العظمة والعزة لهم كلما احتاجوا إليه،ومن عاداتهم أنه لما برز شاعر في قبيلة ما،تعقد فيها الحفلات وتقام فيها الدعوات،ويعم السرور والفرح على تلك القبيلة.ولم يجد الشعر القصصي والتمثيلي مكانا عند الشعراء الجاهليين،هم قرضوا أشعارا وجدانية و غنائية فقط حسب طبيعتهم و فطرتهم. والموضوعات التي اتخذوها هي:الفخر والمدح والرثاء والغزل والوصف والحكمة والفلسفة والاعتذار.وكان امرؤ القيس أشهر شعراء العصر الجاهلي إذا وصف واهتم بالغزل،وزهير بن أبي سلمى أعرفهم إذا امتدح وأتى بالفلسفة والحكمة،وعمرو بن كلثوم إذا افتخر والنابغة الذبياني إذا اعتذر. وكانت أشعار العصر الجاهلي ذات الألفاظ المألوفة مرة والوحشية أخرى، والتراكيب والمعاني كانت بعض المرات سهلة ممتنعة ومعقدة ومغلقة أخرى.

كان النثر في الأدب الجاهلي متنوعا ومختلفا حسب الموضوع،هو يحتوي على كثير من الموضوعات المتواجدة حتى الآن،ولكن الخطابة والوصاية والأمثال كانت أهمها، وكان لكل قبيلة خطيب،هو مثل شاعر يرفع أعلامها،ويذكر فخرها واعتزازها،ويمثلها إذا جاء الوفد، لأجل خبرته وأهليته ينال مكانة مرموقة فيها،وقد اشتهر قس بن ساعدة الأيادي وعمروبن معديكرب الزبيدي وأكثم بن صيفي وعمرو بن كلثوم كثيرا في هذا الفن،كما كانت وصايا ذي الأصبع العدواني لأبنه وقت منيته معروفة جدا،وكان أسلوب الخطابة واضحا لا يوجد فيها الخفاء والإغلاق،سهلا وأنيقا،بعيدا من كل مشكلة وصعوبة،تكثر فيها درر الحكم والأمثال.

اللغة العربية في العصر الإسلامي

وقد بدأ في لأدب العربي عصر جديد،لما طلعت شمس الإسلام في أرض مكة ونزل القرآن الكريم في اللغة العربية الفصيحة، ويناسبنا أن نقسم هذا العصر أيضا في جزأين: العصر الأول يبدأ منذ غرة الهجرة إلى نهاية الخلافة الراشدة،والعصر الثاني منذ أن تولى الأمير معاوية _رضي الله عنه_ أمور الخلافة عام 40هـ إلى أن انهارت الخلافة الأموية عام 132هـ، في العصر الأول كان القرآ ن والحديث النبوي مركز اهتمام وعناية لرجال الأدب والعلم، كان القرآن الكريم كلام الله الذي أعجز العرب البلغاء والفصحاء من أن يجيئوا بمثله،هو بلغ إلى ذروة الكمال والإتمام في الفصاحة والبلاغة إلى حد أن اعترف المنكرون أنه نزل من جانب الله _تعالى جده_ ثم كان الحديث النبوي أي كلام محمد ﷺ أكبر نموذج لأجمل الكلام وأروع البيان بعد القرآن الكريم،الجمل القصيرة الذهبية تؤدي معاني تشتمل على صفحات طويلة،كأن البحر انكب في كوب واحد،وقد صار كلا الكلامان فيما بعد أثاثة عظيمة للأدب العربي،ولأجل ذلك قد ترجحت كفة النثر على كفة الشعر في ذلك الزمان.فبالإضافة إلى الحفاظ على موضوعات الشعر و النثر المتوارثة من العصر الجاهلي حفاظا تاما،إن المسلمين زودوا الأدب العربي بكثير من أنواع النثر والشعر،وأغنوه بمختلف العلوم الجديدة مما لم يكن للعرب عهد من قبل،ونشر الإسلام والمسلمون في العالم،وخرجت اللغة العربية أول مرة في التأريخ من سجن الجزيرة العربية وسافرت مثل سرعة الفرس العربي إلى إفريقيا،وأوربا و كثير من بلاد آسيا غضون مئة سنة منذ أن اعتنقها الإسلام. واجه الشعر قليلا من التغيير والتفريق،كانت جميع الموضوعات التي ورثت من العصر الجاهلي رائجة في تلك الأيام أيضا،وذلك لأثر الإسلام والقرآن الكريم،فالناس أعرضوا من قرض الأشعار الفاحشة والمنكرة والمفسدة الأخلاق والدين،واتخذوا غزلا عذريا في مكانها،كذلك احترزوا من أن يهجوا أحدا لأجل عصبية القبيلة أو عداوة ذاتية ولكن فنا جديدا برز في دنيا الهجاء، وهو فن النقائض أي ذكر المفاخر و المآثر لأنفسهم وتحقير الآخرين وتذميمهم ثم رد المنافس على تلك الأشعار في نفس البحر والوزن.كان

كفار مكة يهجون خاتم الأنبياء ﷺ و أصحابه رضي الله عنهم، فطلب منهم أن يدافعوا عنه وأن يجيبوا عليهم. فقرضوا الأشعار ضدهم وأجابوا عليهم وكان حسان بن ثابت أبرز من ذاد عن رسول الله ومدحه فالآن كان الناس يهجون لأجل الدين ولأجل حبهم لمحمد ﷺ. والشعراء الذين نالوا كل من العصر الجاهلي و العصر الإسلامي يقال لهم في الأدب العربي "مخضرمون" وكان "كعب بن زهير" المتوفى سنة26ه و"الخنساء" المتوفاة سنة 24ه و"حسان بن ثابت" المتوفى سنة 54ه و"الحطيئة" المتوفى سنة 45ه من أشهر شعراء المخضرمين.

اللغة العربية في العصر الأموي

ولما انحطت الخلافة الراشدة وبنيت على أنقاضها السلطنة الأموية ويقال لها الخلافة الأموية أيضا،أخذ الناس يعودون إلى الجاهلية الأولى،ونستطيع أن نقول إن بعض القلوب حتى الآن كانت فارغة من خشية الله،فهم كانوا على عادات سابقة من الجاهلية و الهمجية،فمارسوا أشعارهم حسب الموضوعات السابقة. وتفرقت أمورهم السياسية وتشتت شؤونهم الحكومية، وانقسموا بينهم فيمن يؤيد معاوية ومن يخالفه،ومن يكون من شيعة لعلي _رضي الله عنه_ ومن يخرج عليه،وظهرت المخاصمة والمواجهة على أساس النحلة و القبيلة التي أخمد الإسلام نارها،وتأثر الأدب العربي أيضا بهذه المنافسة، ونفقت سوق أشعار المذاهب المختلفة، فكان بعض الشعراء يقرضون الأشعار لأهل التشييع وبعضهم للخوارج و بعضهم لأهل السنة و الجماعة، ومن هذه المنافسة تولدت أشعار النقائض المعروفة في الأدب العربي التي كانت جرت بين الفرزدق المتوفى سنة 110ه و جرير المتوفى 110ه، وكان الأخطل المتوفى سنة 95ه شاعر الخلافة وصوته،أيد الفرزدق في المنازعة.ومن أكبر إيجابيات لهذه المساجلة الشعرية و المناقضة النحلية إن الأدب العربي صار حافلا بالمفردات والمعاني،وكثير من ألفاظه التي أوشكت أن تغيب أو تضيع عادت حية، كأن روحا جديدة نفخت فيها،و بجانب

الغزل العذري عاد الغزل إلى صورته السالفة، وارتقى،وازدهر، وكان عمر بن ربيعة المتوفى سنة 93هـ أعرف الشعراء في هذا الفن.

وفي هذا العهد لم تترجم العلوم الأجنبية المهمة إلى اللغة العربية،والخلافة الأموية لم تسمح لأهل فارس و الروم أن يقربوا إلى البلاط،بل كانت متعصبة للعرب فقط،فروجت من العلوم ما كان أصلها عربيا ولكن بعضا من العلوم العربية الجديدة ولدت فيها، دون القرآن الكريم وبدأت عملية جمع الحديث النبوي، كما اخترع علم النحو والصرف.

وكان النثر في هذا العصر مشتملا على الخطبة والوصية والرسالة،ولكن ازدهر فن الخطابة أكثر من أي فن أخر وحتى من فن الشعر،وذلك لكون رسول الله ﷺ خطيبا وهو أفصح العرب وأبلغ الناس،وكون جميع الخلفاء الراشدين_ رضي الله عنهم_ على خطواته في هذا الفن، وكونها جزء لا يتجزى للحضارة الإسلامية فيما بعد إذ يلقي أئمة المساجد ورجال الدين الكلمات،كلما احتيج إليها،وقد لمسها التغيير حسب الأسلوب قليلا،فهي ابتدأت بالحمد والصلاة على النبي ﷺ،وكان جل موضوعها يحيط بالدعوة إلى الدين والعظة والنصيحة،فأتى أصحابها بآيات القرآن الكريم والحديث النبوي والحكم و الأمثال كثيرا للحجج و الأدلة،ثم كانت استخدمت لأغراض السياسة و الدين كذلك وأعرف خطباء هذا العصر كان "سحبان وائل" المتوفى سنة 54هـ ،و"زياد بن أبيه" المتوفى سنة 53هـ ،و "الحجاج بن يوسف" المتوفى سنة 95هـ،و"قطري بن الفجاءة" المتوفى سنة 78هـ.وتطور فن كتابة الرسائل أيضا في هذا العصر،وكان عبد الحميد بن يحي المتوفى سنة 132هـ أكبر كتاب هذا العصر،هو خلف أثرا عظيما عليها،فزينها ونمقها وحبرها بالمترادفات والمتشابهات من الألفاظ وبالألقاب الفخمة والدعوات الجليلة،وأطال وأسهب في الكلام،وقد اتخذ كثير من الكتاب فيما بعد هذه الطريقة نموذجة لهم ومثالا.

اللغة العربية في العصر العباسي

وكان العصر العباسي من أزهر العصور وأكبرها تطورا للغة العربية وآدابها،في هذا العصر صارت اللغة العربية لغة العلوم والفنون المترجمة من اللغات الأخرى،وكثر فيه عدد الشعراء و الكتاب إذ كانت الخلافة العباسية نفسها تعضد وتؤيد جميع مهمات العلوم و الفنون،و تحث أهلها بالأموال والهدايا على الإتيان بما يكون جديدا في اللغة العربية،وقد تولدت كثير من العلوم الإسلامية والعربية مثل علم الحديث وعلم أصول الحديث وعلم الرجال وعلم البلاغة وغيرها،وكتبت فيه المعاجم العربية.كما ترجمت عدد لا بأس به من أمهات الكتب في الأدب و الثقافة والتأريخ والطب والفلسفة والحكمة والعلوم والتكنالوجيا من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية،وكان لدار الحكمة التي تم إنشاؤها على أيدي الخليفة المامون المتوفى سنة 218هـ دور كبير في ملأ ذيلها بالعلوم والفنون.

وقد خاضت لقانون الطبيعة و الفطرة إذ قابلت اللغات الأخرى،و إذ واجهت حضارتها حضارات أجنبية،فهي أثرتها وتأثرت بها وأعطتها شيئا وأخذت منها شيئا أخر،وفي ذلك الوقت كانت الحضارة الفارسية أي الحضارة الساسانية، والحضارة الرومية من أكبر الحضارات في العالم،ومن أقربها مسافة ومكانا إلى الحضارة العربية،فتناولت منهما كثيرا،ولكنها تأثرت بالفارسية أكثر من أي لغة أو أي حضارة، وكانت الخلافة العباسية أسست بسبب قوة الفرس، والخلفاء كافأوهم وجازوهم لهذه التضحيات والوفاء بالمناصب العلياء مثل الوزارة والكتابة في الحكومة، وكانوا لهم أكبر نفوذ وسلطة بعد الخلفاء في الحكومة،هل أحد يتصور الخلافة العباسية بدون "مسلم بن الوليد" المتوفى سنة 208هـ،و"عبدالله ابن المقفع" سنة 142هـ،و"يحي البرامكي" المتوفى سنة190هـ،وغيرهم؟ وكلهم كانوا من الفرس،ولأجل ذلك نجد أن العباسيين بنوا بغداد التي كانت قريبة من إيران عاصمتهم،دون مدينة عربية أخرى مثل دمشق.وقد اقتبست لغتنا كثيرا من الألفاظ الفارسية،كما هي أخذت منها الأساليب أيضا،مثل الألقاب و الصفات و

كثرة الترادف و التعظيم في المخاطبة،وتنميق الكلام و الإتيان بالاستعارة و التشابهة و البداعة في البلاغة،ولأجل اختلاط العرب بالعجم و لأجل انتشار حدود المملكة الإسلامية،بدأ الضعف و الوهن يتسرب إلى اللغة العربية،فقام رجال الفن بتحديد الزمان و الشاعر والكاتب الذي يمكن الاستدلال به في القواعد و استخدام الألفاظ و المعاني،فكان بشار بن برد المتوفى سنة 167هـ،أخير من يحتج بأشعاره في اللغة العربية،ومن جاء بعده كان لسانه العربي لم يبق خالصا،بل أفسدته العجمية.

إن للحياة والمجتمع دورا بالغا في تحديد نوعية الشعر والنثر في كل لغة وكل حضارة، وفي تعيين طريقتهما ومنهجهما، إن كانت حياة الناس ضيقة، والفقر والبؤس أضناها،أو كان المجتمع في سجن العبودية والرقي،والحاكمون مخمورون في نشوة المال والمتعة،ما عسى أن يكون الشعر أو النثر؟هل هو يكون شعرا عاديا أو نثرا عاميا؟ هل يصور الشاعر الجميلات ويمتع الناس بحسنهن ويخلبهم بجمالهن أو يرسم المظاهر الفطرية؟ كلا وحاشا!!لأن الشاعر أو الكاتب فرد من أفراد المجتمع وصورة من صوره،هو يقول ويكتب ما رأت عيناه،ويترجم ما تكون أوضاعه وما تكون أحواله،وإلا فهو يكون كل شيئ سوى شاعر لأنه لم يشعر ،وكل شيئ سوى كاتب لأنه لم يكتب.هل نشم رائحة التحضر أو الترف عندما نقرأ الشعراء الجاهليين كما نجدها عند شعراء العصر العباسي؟ أو نجد أوصاف الأطلال والصحراوات في أشعار الشعراء العصر العباسي كما هي توجد عند الشعراء في العصر الجاهلي؟ فالمجتمع وما حوله من التقاليد والعادات تؤثر الشاعر أو الكاتب تأثيرا بالغا وتهزه هزا عظيما،وتحركه حركة سريعة.ومجتمع العصر العباسي الإسلامي وحضارته أيضا غيرا تيار الشعر والنثر،وبدلا صورتهما،الآن كان المسلمون قد تحضروا وتمدنوا،كانت وفرة المال والغناء كل جانب،ومعايير الحياة تطورت وتغيرت، فانقلبوا في الترف والرفاهة والطمأنينة والنعمة،كانت المدن الإسلامية وخاصة بغداد ودمشق من أكبر المدن وأجملها وأحسنها بناء وتعميرا في العالم ذلك الوقت،ولم تبق الأمة العربية خالصة مزيدا بل كان امتزاج أهل الفرس والروم،هم صاروا أهم جزء لمجتمع

المسلمين،أكثرهم اعتنقوا الإسلام دينا لهم،وبعضهم مازالوا يبقون على دين آبائهم وأجدادهم، وجميعهم كانوا على دراية بلغتهم وثقافتهم،وكان يوجد عدد لا بأس به من الذين في جماعة الكتاب والشعراء من ولدوا من جنسيتين مختلفتين؛مثلا "بشار بن برد" المتوفى سنة167هـ،"وأبي نواس" المتوفى سنة 198هـ و"ابن الرومي" المتوفى سنة 284هـ،ثم كان المسلمون أمة وحيدة حاكمة في العالم كله،قهروا جميع الأمم الحاكمة، في أيديهم كان سواد الدنيا وبياضها،فلم تبق أمة على ظهر الأرض من تنازعهم أو تزاحمهم في أمر من الأمور.

بعد الملاحظة القصيرة عن أوضاع المجتمع العربي في العصر العباسي،دعنا نرى ملامحه أنه كيف تترسم على الشعر و النثر واضحا وجليا.وأنهما كيف اختلفا بعض الاختلاف من العصر الجاهلي و العصر الإسلامي.

فبدلا أن تستهل القصيدة بوصف الأطلال أو الصحراوات،أقبلوا على القصور والحدائق والخمور والأنهار،وأحسنوا أوصافها، ومدحوا الخلفاء والأمراء والوزراء و هاجوا الأعداء فبالغوا في المدح والهجاء وذهبوا فيهما كل مذهب، وقد أكثروا استخدام التشبيه والاستعارة والبديع فيهما،وظهرت الأشعار الفلسفية و الحكمية والعلمية على أيدي أبي تمام المتوفى سنة231هـ وأبي الطيب المتنبي المتوفى سنة 354هـ و أبي العلاء المعري المتوفى سنة 449هـ.وقد أضيفت بعض الأغراض في الشعر،مثلا الأخلاق الفاضلة والعادات الحسنة،والوعظ والتقوى، ووصف المذكر وتصوير جماله وعن المجون والدعارة ونعت الخمر ومجالسه على أيدي أبي نواس المتوفى سنة 198هـ وغيره.

ولما لحق بالخلافة العباسية الوهن والكل،وانحلت عقدتها، استقلت كثير من البلاد والمدن وصارت دولا مستقلة وحواضر حرة، وصارت في أيدي العجم من آل سلجوق وآل بويه،ولم يبق من الملوك من فطر على الذوق الأدبي والعلمي واهتم بالشعر العربي، نتيجة للإهمال وعدم المبالاة،اصطبغ عليه لون التكلف والتنميق الكذب إلا بني حمدان فإنهم لم يكتفوا بحفاظ

وصيانة الروح العربية في الشعر وكفه عن لون العجم،بل فتحوا خزانتهم المالية لخدمات علمية وأدبية،وشجعوا الشعراء وأهل العلم والفن كثيرا بأذواقهم وأموالهم، ورحبوا كل من يقصد إلى بلاطهم حتى قيل إنه لم يجتمع ذلك الوقت من رجال العلم والأدب كما حضروا في بلادهم،وكان "أبوفراس الحمداني" المتوفى سنة 357هـ من أكبر الشعراء من تلك الأسرة العلمية،كما كان المتنبي اغترف زمانا طويلا من جودتهم وسخائهم.

وفي العصر العباسي كل علم من علوم اللغة والأدب المتواجد ترقى وازدهر،كما ظهرت العلوم الأخرى في حيز الوجود مثل علم العروض والقافية وعلم البيان وعلم البديع،دون الأدب واللغة والشعر والنثر من العصور السابقة وبرز الرواة واللغويون، فمن أكبر الرواة كان "حماد الراوية" المتوفى سنة 156هـ و"خلف الأحمر" المتوفى سنة 180هـ و"أبي عبيدة" المتوفى سنة 209هـ صاحب "مجاز القرآن" ويقال إنه وضع علم البيان أيضا،و"أبي زيد الأنصاري" المتوفى سنة 215هـ و الأصمعي المتوفى سنة 216هـ صاحب "كتاب الخيل" و"كتاب الأجناس" و أبي الفرج الأصبهاني المتوفى سنة 356هـ صاحب "كتاب الأغاني" و"أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ" المتوفى سنة 255هـ صاحب "البيان والتبيين" و"كتاب الحيوان"،وقد برز على أفق النحو كبار من الأئمة والأعلام منهم كان العلامة "أبو بشر عمرو بن عثمان" الملقب بسبويه المتوفى سنة 18هـ صاحب "الكتاب" و"أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي" المتوفى سنة 189هـ صاحب "معاني القرآن" و "كتاب النحو" و"يحيى بن زياد الفراء" المتوفى سنة 207هـ صاحب "كتاب المعاني"و"كتاب الحدود" و"عثمان بن عمر" الملقب بابن الحاجب المتوفى سنة 646هـ صاحب "الكافية" و "الشافية"ومن اللغوين كان "أبوبكر محمد بن الحسن بن دريد" المعروف بعلامة ابن دريد المتوفى سنة 321هـ صاحب "كتاب الجمهرة في اللغة" ،وكان "الخليل بن أحمد الفراهيدي" المتوفى سنة 175هـ من كبار اللغوين والنحوين ،هو أول من ألف قاموسا عربيا معروفا بـ"كتاب العين" كما كان واضع علم العروض و القافية،أوجد خمسة عشر وزنا للشعر العربي،وكتاباه "كتاب العروض"،و "كتاب الإيقاع" شهيران جدا.

وعلى الرغم من أن علم البيان ظهر في الصورة الابتدائية على أيدي أبي عبيدة و الجاحظ كما يظن غالبا، ولكن الإمام عبدالقاهر الجرجاني المتوفى سنة 471هـ صاحب "دلائل الإعجاز" والإمام أبي يعقوب السكاكي المتوفى سنة 626هـ صاحب "مفتاح العلوم"، أحكما أصوله و ضبطا قواعده وكتبا كتبا مستقلة له،واخترع الخليفة العباسي عبد الله بن المعتز المتوفى سنة 296هـ علم البديع، له "كتاب البديع" و "كتاب طبقات الشعراء" و"كتاب أشعار الملوك" في هذا الفن.

اللغة العربية في الأندلس

كانت أندلس (أسبانيا الحالية و برتغال) من البلاد الأجنبية التي سافرت إليها اللغة العربية في نهاية القرن الأول للهجرة،وأقامت فيها حوالي ثماني مئات سنة إلى أن طوى المسلمون فراش الحكومة والتوطن منها سنة 898هـ.هنا تطورت اللغة العربية شعرا ونثرا،كما كانت لها أيام زاهرة في الشرق،والخلفاء والملوك كانوا ساهموا كثيرا في تأييد قافلة الشعراء والخطباء بأذواقهم وأموالهم،كما بلغت العلوم الإسلامية مثل الحديث والفقه والتفسير والسيرة النبوية والتصوف والعلوم الأخرى المترجمة مثل الفلسفة والحكمة والتأريخ والطب وعلوم الطبيعة أوجها وذروة كمالها.

كانت البيئة الطبعية والمظاهر الفطرية لهذه البلاد تختلف عما كانت للبلاد العربية الشرقية وأجوائها ومناظرها من مميزات وخصائص،تتواجد هنا كل جانب وكل مكان حدائق خضراء وخمائل جميلة وجبال رفيعة وأنهار جارية وعيون سائلة وطيور غانية،فلم يكن للشعراء والكتاب بد إلا أن يهتزوا بها وينفعلوا،ويسحروا،وأن تنزل منهم أحسن منزل،وتقع منهم أجمل موقع، فقرضوا أشعارهم بالأوزان الخفيفة، وأتوا بجدة واختلقوا نوعا حديثا في الشعر يوافق وصف المناظر الخلابة،وتعرف هذه الأشعار بـ"الموشحات"،فيها تتنوع القافية،كما هم أجادوا جميع

الموضوعات المألوفة عند أهل الشرق نحو المدح والفخر والهجاء والوصف والغزل،إلا أن غزلهم كان ذا أسلوب دقيق ورقيق، تحلى بالألفاظ العذبة والمعاني الحسنة،ومن أكبر الشعراء كان ابن عبدربه المتوفى سنة 328هـ صاحب "العقد الفريد"،وابن هاني الأندلسي المتوفى سنة 363هـ،و ابن زيدون المتوفى سنة 462هـ صاحب "الرسالة الجدية" و"الرسالة الهزلية"،وابن خفاجة الأندلسي المتوفى سنة 533هـ.

العصر التركي والمملوكي

إن انهيار الخلافة العباسية سنة 658هـ على أيدي المغول لم يكن انحطاطا سياسيا واقتصاديا فقط بل كان هو انحدارا علميا وفنيا أيضا،والسقوط العلمي أخطر وأضر من أي انحطاط أخر وذا عاقبة وخيمة في حق أمة ما،لأن سيادة العلم والبحث التي فقدتها الأمة الإسلامية رأس كل ازدهار ومصدر كل ارتقاء.قد أسلم المغول المكتبة البغدادية المحفوفة بالكتب والنوادر العربية إلى النار وفوضوها إلى التدمير،كما قتلوا مئات من العلماء وأهل الفن أشنع قتلة،فلم يبق في بغداد وفي بلاد فارس من الملوك من يشرف على اللغة العربية وعلومها،فغادر رجال العلم والفن إلى مصر وبلاد إفريقية،حيث كانت اللغة العربية تنمو وتتطوي مراحل الترقية.

ويعتبر هذا العصر المنبث من 1258م إلى 1798م عصر السقوط وعصر العقامة حسب اللغة العربية شعرا ونثرا وعلومها، وذلك بوجوه وأسباب؛منها أن نار الترجمة التي أذكاها المامون المتوفى سنة 218هـ خمدت في هذا العصر تماما،وتوقفت فيه مسيرة النثر والشعر التي قادها عبد الله ابن القفع المتوفى سنة 140هـ وبشار بن برد المتوفى سنة 167هـ،منها أن اللغة العربية وعلومها قد انحصرت في بلاد مصر وسوريا تحت حماية جامع الأزهر والملوك فقط،ولم تبق شائعة ومنتشرة في العالم الإسلامي كله كما كانت في العصر العباسي،والملوك والسلاطين لم يهتموا بأمورها حق الاهتمام،وقد برز فيه أعلام العلوم والفنون مثل العلامة أبن خلدون

المتوفى سنة 808هـ وجلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911هـ ولكن عددهم قليل جدا،يمكننا أن نعدهم بالأصابع،معظمهم لم يأتوا بالجدة والبداعة في الشعر ولا في النثر بل كرروا ما قاله الأسلاف وأعادوا ما بينه الأجداد،وصارت هذه الإعادة وذلك التكرار والتصنع والتكلف،والضعف والوناء في اللغة من مظاهر هذا العصر.

ومن أعلام هذا العصر في الشعر الإم نصير الدين البوصيري المتوفى سنة 695هـ صاحب قصيدة "البردة" الشهيرة، وابن حجة الحموي المتوفى سنة 826هـ صاحب "خزانة الأدب"،والقشقندي المصري المتوفى سنة 821هـ صاحب "صبح الأعشى"،ومن اللغوين كان جمال الدين ابن منظور المتوفى سنة 711هـ صاحب "لسان العرب"،ومجد الدين الفيروزآبادي المتوفى سنة 817هـ صاحب "القاموس" وجمال الدين بن هشام المتوفى سنة 761هـ صاحب "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" وجلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911هـ،والعلامة ابن خلدون المتوفى سنة 808 من الهجرة صاحب "بالعبر و ديوان المبتدأ و الخبر".

اللغة العربية في العصر الحديث

يبدأ العصر الحديث في الأدب العربي من سنة 1798م، سنة هاجمت فرنسا على مصر تحت قيادة نابليون،وهذا العصر يعرف بعصر النهضة واليقظة عند رجال العلم والفن في الأدب العربي.والنهضة جاءت بطريقتين: بطريق مصر بحملة نابليون عليها،وهذه كانت بذرها وباكورتها،وبطريقة المبشرين المسيحيين في لبنان وسوريا في العقد الثالث من القرن التاسع عشر الميلادي.

هؤلاء الأجانب هبوا يغرسون أشجار العلم الجديد والفن الحديث في بلاد العرب،وسألوا أهلهم أن يتفيأوا بها،وأن يقطفوا أثمارها،ففتحوا المدارس والمعاهد والمطابع ودار التمثيل حسب الطريقة

الجديدة،وأصدروا الصحف والمجلات،فتخرج فيها عدد لا بأس به من أهل الفن،وكان محمد علي أول المسؤولين الحكوميين من أشعل شمعة العلم الجديد في مصر،هو فتح لكل فن ولكل علم مدرسة مستقلة ومعهدا حرا:لعلم الطب والهندسة والتكنالوجيا،وأحضر البارعين من أوربا،ثم بعث الوفود التعلمية إلى بلاد أوربا وأمريكا،وهم لما عادوا إلى وطنهم،حاولوا تمام المحاولة وأخلصها وأمحضها أن يمحوا عار الجهالة والأمية من القوم واعتزموا على أن يهذبوا اللغة العربية وملامحها وأن يزيلوا ما لحق بها من القدامة والاندراس،فترجموا القصص والروايات والمسرحيات، وأسسوا الصحف العربية ومجلاتها.

وكانت لهذه النهضة وسائل ومصادر،منها المدارس التي فتحت للعلوم المختلفة في أنحاء مصر وبلاد العرب،من بين هذه المدارس كانت مدرسة الألسن التي أقيمت لترجمة الكتب الأجنبية إلى العربية،وقد أدارتها رفاعة بك طهطاوي المتوفى سنة 1873م وترجمت كثيرا من الكتب من الطب. منها جامع الأزهر،هو من أقدم الجامعات في العالم،بني للعلوم الإسلامية،ولكن بمرور الزمان اجتاحه تيار الحداثة والجدة،فأسست الكليات لمختلف العلوم والفنون:كلية لأصول الدين وكلية اللغة العربية وكلية لمطالعة الأديان.منها الجامعة المصرية التي بنيت سنة 1908م،هذه الجامعة في البداية كانت مشتملة على كلية العلوم وكلية الآداب فقط،ولكنها في 1925م تطورت، فأضيفت إليها مختلف الكليات مثل كلية الهندسة وكلية الطب وكلية الزراعة و كلية الحقوق، وصارت جامعة القاهرة عام 1925م.منها الطباعة:إن الطباعة في العصر الحديث سهلت السبيل إلى نشر الكتب في الناس ومهدت الطريق لإذاعة العلوم والأفكار بين عامة الناس، هي في الحقيقة جاءت بالانقلاب في مجال العلم والفن،هي من مخترعات أوربا في العصر الحديث،وكان للغوي الكبير أحمد فارس الشدياق المتوفى سنة1887م دور كبير في الإتيان بالمطبع العربي سنة 1808م، وكان اسم مطبعه "مطبعة الجوائب"،وجاء المطبع في البلاد العربية أولا في لبنان حيث كان المبشرون المسيحيون، وكانت المطبعة الكاثوليكية المؤسسة سنة 1848م شهيرة جدا في طباعة الكتب العربية ونوادرها،جاءت في بلاد مصر

بواسطة نابليون سنة 1798م،ثم أسس محمد علي مطبعة بولاق سنة 1821م.منها الصحافة،هي فن متطور جدا،ورصيف كبير للكتابة والقراءة،ووسيلة مهمة للاتصالات والعلاقات بين الناس،وقد سبقت الصحافة المطبعية الصحافة الكتابية،وكانت أول صحيفة في اللغة العربية "الوقائع المصرية" التي تم إنشاؤها على أيدي محمدعلي سنة 1828م،وكان رفاعة بك الطهطاوي أول مدير لها،وكان رزق الله حسون الحلبي أول من أصدر صحيفة "مرآة الأحوال" سنة 1855م في سوريا،كما كانت جريدة "الجوائب"تحت إدارة أحمد فارس الشدياق المتوفى سنة 1887م صدرت من تركيا سنة 1860 من الميلاد. منها المجامع الأدبية، في العصر الراهن شهدت اللغة العربية مجامع أدبية ولغوية في طول بلاد العرب،ومن أهم الأهداف وراء بناء هذه المجامع،إيجاد المصطلحات الجديدة والألفاظ الحديثة وفق العلوم الرائجة،وتقويم اللغة العربية وتراكيبها ومعانيها في ضوء علم اللغة،وتشجيع الدارسين والباحثين على الدراسة العربية ومساعدتهم ما أمكنت المساعدة،وتجمع هذه المجامع المنبثة في طول العلم العربي كوكبة من علماء اللغة وأدبائها وماهري فنها،كانت سوريا أول ما أنشأت المجمع العلمي العربي بدمشق سنة 1916م،ثم على غرار هذا المجمع بني مجمع اللغة العربية بالقاهرة (مصر) سنة 1932م،وفي الأيام التالية أسس المجمع العلمي العراقي ببغداد.

هذه كانت أهم وسائل ومصادر التي ساعدت اللغة العربية وآدابها في الإتيان بالنهضة واليقظة في العصر الراهن، وبعض رجال العلم والفن عدوا التمثيل أيضا في هذا الفهرس،ولكنه في أول أمر كان في حيازة الأمراء والأغنياء،ثم تحول إلى الدهماء وعامة الناس،فلم ينل قبولا وتداولا كما كان مرجوا،والآن هو تطور وتقوى بسبب السينيما ودار التمثيل.

ومن عادات النهضة أو الانحطاط إنها لا تحل بوقت واحد في حق أمة ما ولا تنزل بها فجأة، ولكنها تستغرق أياما وزمانا في الانتهاء إلى الهدف أو المنزل،من مميزاتها التدرج والبطء والإمهال،لاتعرف السرعة ولا العجلة،فهي أشبه شيئ بمشية السلحفاة،وهذا الأمر يتضح جليا،لو

أعمقنا النظر في وسائل النهضة للغة العربية،هي لم تكن لأجل حملة نابليون سنة 1798م فقط،بل هي تمتد على القرون وعلى العهود،فمثلا المجامع العربية التي هي من أخطر شأنا لوسائل النهضة، أنشئت بعد أكثر من مئة سنة لحملة نابليون،وكذلك بذرت الصحافة بعد ثلثة عقود لتلك الحملة.

وقد ساهمت أكثر البلاد العربية في هذه النهضة مساهمة تتفاوت بين القليل والكثير،ومن أبرزها كانت مصر والسوريا ولبنان والعراق،وظهرت في هذه البلاد شخصيات رفعت رايتها وأعلت كلمتها،من بينهم كان الشيخ رفاعة بك الطهطاوي المتوفى سنة 1873م،هو كان في أول وفد تعليمي سافر إلى فرنسا،ثم رجع فأكب على ترجمة الكتب الأجنبية،وقد أدار جريدة "الوقائع المصرية" سنة 1928م،ثم محمد عبده المتوفى سنة 1905م صاحب "الإسلام و النصرانية" ومجلة "العروة الوثقى" و قاسم بك أمين المتوفى سنة 1908م،صاحب كتابي "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة"،ومصطفى كامل المتوفى سنة 1908 من الميلاد صاحب مجلة "اللواء" وكان صحفيا كبيرا وخطيبا ماهرا جدا،وأمير الشعراء أحمد الشوقي المتوفى سنة 1932م صاحب "مصرع كليوبترا"،و"مجنون ليلى" و "علي الكبير"و"عظماء الإسلام" وحافظ إبراهيم المتوفى سنة 1932م صاحب "الأغاني"،كذلك في لبنان الشاعر الكبير بطرس كرامة المتوفى سنة 1851م، والروائي الكبير والصحفي الشهير جرجي زيدان المتوفى سنة 1914م صاحب مجلة "الهلال" و"تأريخ اللغة العربية" وله كتب كثيرة جدا عن اللغة العربية والمجتمع الإسلامي وتأريخ الإسلام،وكذلك يعقوب صروف المتوفى سنة 1927م صاحب جريدة "المقتطف"، وكذلك محمود شكري الآلوسي المتوفى سنة 1923م صاحب "بلوغ الأرب في أحوال العرب" و الشاعر الكبير الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي المتوفى سنة 1936م صاحب كتاب "الكائنات" ،وكذلك أنستاس ماري الكرملي المتوفى سنة 1947م عضو مجمع اللغة العربية.

وكانت اللغة العربية نثرا في هذا العصر تعرضت للتغيير والتبديل،تاركة طريقة الحريري المملوءة بالصناعة والتكلف والمبالغة والتعقيد،ومتخذة ما هو يسمى بأسلوب سهل وعذب،والكتاب الذين ظهروا على ستار اللغة العربية والنثر معظمهم كانوا على إلمام تام باللغات الأجنبية والأساليب الغربية،فكانت معالم اللغات الأجنبية واضحة على كتابتهم،وقد أفادوا منها حسب الموضوع أيضا،وآتوا بفنون الرواية و القصة القصيرة و المسرحية بشكل فني،وجعلوها جزء مهما للغة العربية،وكانت هذه الفنون دخلت في لغتنا بواسطة لبنان أولا،وفيها كان فرنسيس مراش الحلبي المتوفى سنة 1872م،وسليم البستاني المتوفى سنة 1884 من الميلادي،وجرجي زيدان المتوفى سنة 1914م،وقد عالجها العرب و خاصة المصريون ولكن في صورة الترجمة أولا،من السباقين في مصر كان نجيب الحداد المتوفى سنة 1899م صاحب "غصن البان"،ومصطفى لطفي المنفلوطي المتوفى سنة 1924م صاحب "الفضيلة"،وحافظ إبراهيم المتوفى سنة 1932م صاحب "البؤساء"، وكانت هذه القصص سببا رئيسيا لتطور فن القصة والرواية في الأدب العربي،ثم أقبل طائفة من الكتاب على هذا الفن،واخترعوا من القصص ما كانت كاملة ونضيجة حسب القواعد،وأول رواية كانت "زينب" لمحمد حسين هيكل المتوفى سنة 1956م وهي ظهرت سنة 1914م،بعد ذلك عمت هذه التقاليد،وكان من أكبر الأبطال لهذا الميدان طه حسين المتوفى سنة 1972م، ومحمود عباس العقاد المتوفى سنة 1964م صاحب "سارة" ومحمود تيمور المتوفى سنة 1973م صاحب "سلوى في مهب الريح" وتوفيق الحكيم المتوفى سنة 1987م صاحب "أهل الكهف" و نجيب محفوظ المتوفى سنة 2009م صاحب "أولاد حارتنا" وحائز على جائزة نوبل سنة 1988م،وجبران خليل جبران المتوفى سنة 1931م صاحب "الأجنحة المتكسرة"،والطيب الصالح المتوفى سنة 2009م صاحب "موسم الهجرة إلى الشمال"وغسان كنفاني المتوفى سنة 1972م صاحب"رجال في الشمس".

والمسرحية التي تعد من أهم فنون النثر في هذا الزمان،لم تجد المكان في صورة كاملة إلا على أمير الشعراء أحمد شوقي المتوفى سنة 1932م،من أهم إنتاجاته في هذا الفن "علي بك الكبير" و"كيلوبترا" و"مجنون ليلى" و"عنترة" و "الست هدى"،وهذه المسرحيات في شكل الشعر التمثيلي، ولتوفيق الحكيم المتوفى سنة 1987م كثير من الكتب في هذا الفن، مثل "سليمان الحكيم" و "حمار الحكيم" و "شهر زاد" وقد ترجمت بعضها إلى معظم اللغات الحية في العالم مثل الإنجليزية والفرنسية والروسية والألمانية.

وكانت حركة النهضة في الشعر في هذا العصر أبطأ من النثر،اعتنى رجال الأدب بالنثر في بداية القرن الثامن الميلادي،أما الشعر فحفلوا به في نهاية القرن الثامن الميلادي،وكان محمود سامي البارودي المتوفى سنة 1904م أول من أعاد إليه روحه التي نفخها الشعراء في العصر العباسي،وخلعه من ملابس التكلف والتصنع التي ألقاها الشعراء بعد ذلك العصر،ثم تلاه أمير الشعراء أحمد شوقي المتوفى سنة 1932م وحافظ إبراهيم المتوفى سنة 1932م اللذان أحسنا صيانة وراثة بشار والمتنبي وحفظها،وكان من بداعة أحمد شوقي أنه قرض أشعارا تمثيلية لأول مرة في تأريخ الأدب العربي،ومن أهم مميزات لهؤلاء الشعراء أنهم لم يقيدوا أنفسهم في قيود الشعر فقط بل كانت لهم في نفس الوقت مهن أخرى أيضا،فبعضهم كان طبيبا مثل أحمد زكي أبو شادي المتوفى سنة 1955م وبعضهم دبلوماسيا مثل عمر أبوريشة المتوفى سنة 1990 و بعضهم أخر مهندسا مثل علي محمود طه المتوفى سنة 1949م.

ومن أكبر مميزات لهذا العصر حسب الشعر،إنه يعد أخصب وأخضر عصر حسب عدد الشعراء والموضوعات والأساليب،نجد عدد الشعراء أكثر من أي عصر آخر،والموضوعات أيضا ازدادت،ففيه مثلا بالإضافة إلى الموضوعات المتذللة كالفخر والمدح والهجاء والغزل، نجد أشعارا عن المناسبات والسياسة والحنين إلى الوطن والفلسفة والاجتماع.وقد جاء فن جديد في الشعر العربي وهو الشعر الجديد أو الشعر الحر.

والآن في هذه الحقبة يساير الأدب العربي مع سائر الآداب الراقية ،ويعترف العالم بأهميته وما فيه من محاسن للتعبير عن كل ما يحتاج إليه المرء في حياته أحسن اعتراف،فمنحت جائزة نوبل للأدب العربي سنة 1988م،واللغة العربية من إحدى اللغات الرسمية في منظمة الأمم المتحدة بالإضافة إلى كونها لغة رسمية لعشرات البلاد الممتدة على آسيا وإفريقيا،كما ترجمت كثير من المسرحيات والقصص والروايات العربية الإسلامية وغير الإسلامية إلى لغات أخرى مثل ألمانية و فرنسية و إنكليزية.

الفصل الثاني

ثقافة العرب ومصدرها

عندما نحن نتكلم عن اللغة والثقافة العربية في العصر الجاهلي،نعني منها ما كان للعرب من أوضاع علمية وعقلية وثقافية واجتماعية حوالي مأتي سنة قبل مجيئ الإسلام،قبل هذه المدة نجد التأريخ صامتا وساكتا عنهم كل السكوت.ينتسب العرب إلى سام بن نوح،أي أصلهم يرجع إلى أمة سامية،والسامية تشتمل على الأمم المختلفة التي صارت بمرور الأيام أمما مستقلة، وهي:الحبشية والآرامية والفينيقية والعبرانية والأشورية والبابلية.وكانت هذه الأمم في غرة الأمر استوطنت مكانا واحدا،ولكن عوامل الطبيعة وأسباب الفطرة أجبرتهم على أن ينتشروا في المناطق المختلفة وأن يتفرقوا في الأقاليم المتنوعة،فاتخذ معظمهم الجزيرة العربية وما جاورتها من البلاد موطنا لهم،وبعضهم لجأوا إلى بلاد إفريقيا.وأي ثقافة كانت أقدم من بين ثقافات العربية واليونانية والعبرانية؟ فذهب المؤرخون الأوربيون والمؤرخون الشرقيون إلى أن اليونانية هي التي أقدم وأعرق،ولكن البحث الجديد وضع علامة الاستفهام على هذا الادعاء، وانكشف عن قدامة الثقافة العربية،فبعض العرب ومنهم عباس محمود العقاد المتوفى سنة 1964م يعتقدون أن الثقافة العربية هي أقدم وأعرق من بين هذه الثقافات الثلاث،وهو يستدل على هذا الادعاء بالأبجدية اليونانية التي هي عربية بحروفها وبمعاني تلك الحروف وأشكالها،وكذلك بالسفرين الأولين من التوراة التي في أيدي الناس اليوم:وهما سفر التكوين وسفر الخروج،لأن كلا السفرين صريحان في تعليم الصالحين من العرب لكل من إبراهيم وموسى _عليهما السلام_.يقول العقاد:"وقد أشاع الأوربيون في عصر ثقافتهم وسلطانهم أن أسلافهم اليونان سبقوا الأمم إلى العلم والحكمة،واختلط على الأوربيين كما اختلط على غيرهم قدم التوراة بالنسبة إلى

المسيحيين والمسلمين،فتوهموا أن العبرانيين سبقوا العرب إلى الدين والثقافة الدينية،وكتابهم نفسه صريح في حداثة إسرائيل وحداثة إبراهيم من قبله بالنسبة إلى أبناء البلاد العربية"[1].

وقد ذهب المؤرخون مذاهب مختلفة في تحديد أول موطن للأمة السامية،فمنهم من قال العراق و منهم من رجح أرض الجزيرة العربية ومنهم من أشار إلى أرض الحبشة.

وشبه الجزيرة العربية التي هي مهد العرب ومركز اللغة والثقافة العربية تقع غرب آسيا جنوبا،وهي مثل المناطق الأخرى منقسمة في الأمكنة المتعددة المسماة حسب الأسباب الجغرافية،يحيطها المحيط الهندي جنوبا، وبلاد سوريا شمالا،في شرقها الخليج العربي ونهر الفرات،وفي غربها البحر الأحمر،ثم يقسمها "جبل السراة" المنتشر من اليمن إلى سوريا في الجزئين: في الشرق والغرب،أما الجزء الغربي فهو من سفح الجبل إلى البحر الأحمر،وهذه المنطقة تعرف "بتهامة" لأجل القيظ الشديد،و"الغور" أيضا لوقوعها في الانخفاض،وأما الجزء الشرقي فهو يحيط بما يبلغ إلى العراق،وهذا الجزء يعرف "بنجد" للارتفاع والاعتلاء،والمنطقة التي تقوم فاصلة بين الغور والنجد يقال لها "الحجاز"،ومنطقة نجد التي تحتوي على الخليج العربي تسمى بـ"العروض"لاعتراضها بين اليمن والنجد.الكويت والبحرين وعمان من أشهر البلاد لهذه المنطقة،والمنطقة الجنوبية من الحجاز تعرف باليمن،لكونها على الطرف الأيمن من الكعبة.

وللأمة العربية ثلاث طبقات:البائدة،و المستعربة، والمعربة،وقد حاول المؤرخون تمام المحاولة أن يتعثروا على أحوالهم الاجتماعية والسياسية والدينية جميعا،ولكنهم لم يقولوا بالضبط إلا عن المستعربة و المعربة،أما البائدة فهي طبقة قد محت أيدي الزمان آثارها و عفت معالمها من

---

[1] الثقافة العربية،عباس محمود العقاد،دار نهضة مصر للطباعة والنشر،سنة الطباعة:1996م،رقم الصفحة:4

أرض العرب،فلم يعرف تأريخها و لا سمع عنها إلا من الصحائف السماوية و الآثار الدينية،أما المستعربة فهم أولاد وأحفاد إسماعيل عليه السلام ،يقال إنه حل بالحجاز قبل تسعة عشر قرنا قبل الميلاد،وقد اتخذ أولادهم هذه الأرض وطنا لهم،ولكنهم لم يظهروا على صفحات التأريخ إلا من عدنان الذي ينتهي إليه النسب العربي السديد، ومن أعرف قبائلهم كانت ربيعة ومضر وأياد وقريش وغطفان وعبس وذبيان وهوازن وغيرها، وأما العاربة فهم استوطنوا اليمن (جنوب شبه الجزيرة العربية)، وتحضروا وتمدنوا، وكانت لهم السيادة والملوكية،ومن أشهر قبائلهم كانت حمير والأوس والخزرج والغساسنة وطيئ وغيرها،وكانوا أصحاب اللسان العربي في الأصل ويبلغ نسبهم إلى يعرب بن قحطان، وبعد أن أجحف بهم سيل العرم هاجروا إلى الشمال و خالطوا مع المستعربة،فنسوا لغتهم الخالصة،واتخذوا لغة الشمال. واللغة والثقافة العربية التي بلغتا إلينا هما من هذه الطبقة الشمالية المستعربة،أوضاعهم الدينية والاجتماعية و السياسية و العقلية هي مركز الموضوع.

كانت القبائل في شبه الجزيرة العربية بدوية،ونستثني منها قبيلة قريش وقبائل يمن،وذلك بسبب العوامل الجغرافية والدواعي الفطرية،فكانت الأرض قاحلة وعقيمة لا تحرث ولا تزرع ولا تخصب، والسماء بخيلة لا تجود بالمطر ولا ترسل السحاب الثقال للسقاية،فلم يكتب لهم استقرار في موطن واحد ولم تقدر لهم طمأنينة في أرض دون أخرى،فكانوا على أهبة الرحل والترحال دائما في سبيل الرزق والمال، والأمة تكون حضرية أو متحضرة إذا كانت توجد أسباب القرار والسكون مثل أرض خصبة وسماء ماطرة،كما كانت عند أهل الجنوب أو القحطانيين، أو إذا كانت توجد أسباب العيش والرزق بسبب التجارة وهبوط الناس على تلك الأرض،كما كان وضع قريش،فهم كانوا يتمتعون بسبب مركزية مكة وتجارتهم إلى السوريا واليمن،ولم نجد هذه الأسباب المهمة عند القبائل الأخرى في شبة الجزيرة.

كانوا ينزلون حيث وجدوا الماء والمرعى والعشب،ويتركونها إذا نفد الكلأ والرعاية، وفي هذا الأمر كانت هناك المنافسة والمنازعة والمحاربة بينهم،وهذه كثيرا ما ادت إلى الحرب الطويلة المدة والعداوة المديدة التي كانت تشعل نارها في الأنساب والأجيال،ولأجل ذلك نجد عندهم كثيرا من الأشعار المدحية والفخرية لأهلهم والأشعار في الهجو لمخالفيهم وأعدائهم.ولم تكن عندهم سياسة وحكومة منظمة حتى ألجم المواطنون بلجام القانون،وكان المجتمع قائما على هيكل القبيلة وأساسها،يعرف الناس بقبائلهم،يسود عليها من كان أكيس وأحصف عقلا وأكبر تجربة عندهم، ومن اللازم على كل أن يمتثل لأمره، وأن يكون وفيا ومتعصبا للقبيلة،وإلا فهو سيكون طريدها، كما يقول دريد بن الصمة:

ما أنا إلا من غزية إن غوت   غويت ،وإن ترشد غزية أرشد

ثم القبيلة كانت منقسمة على الأسرة،هي مكونة من الأب والأم والأبناء، يحكم عليها الأب،في أيديه كان سواد الأمر وبياضه،حياة الفرد وموته، كانت القبيلة ذلك الوقت مثل البلاد في أيامنا.

كان معظم العرب على دين الوثنية،كانوا يعبدون الأصنام والأوثان، ويتوسلون بها إلى الله _سبحانه و تعالى_وكان ثلث مئات وستون صنما منصوبة داخل الكعبة، ومن أشهرهم كانت اللات والعزى ومناة،يقول الله في القرآن المجيد: "أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى،ألكم الذكر وله الأنثى"[2]، منهم من كانوا على دين أبيهم إبراهيم _عليه السلام_ فلا يسجدون للآلهة الكثيرة ولا يركعون لهم،بل كانوا يؤمنون بالله وحده،ويكفرون الشرك مثل زيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبي الصلت ،و ورقة بن نوفل كما يقول زيد بن عمرو بن نفيل:

و لا هبلا أزور، و كان ربا   لنا في الدهر إذ حلمي صغير

---

[2] سورة النجم 19_ 21

وكانت بعض قبائل العرب خاضعة للديانة المسيحية مثل غسان وربيعة، وكانت نجران والحيرة من أكبر المواطن لها في شبه الجزيرة، وكانت هذه الأمكنة قرب بلاد السوريا،وقد نالت المسيحية مكانا في شعر امرئ القيس،حيث يقول:

يضيئ سناه أو مصابيح راهب   أمال السليط بالذبال المفتل

وكانت تسربت الديانة اليهودية إلى بعض القبائل العربية،واتخذ اليهود يثرب وخيبر مكانا لهم.

وإذا استعرضنا أحوال العرب العقلية والعلمية،نجد أنهم كانوا أولي حظ من العلوم والفنون، وتشهد الآثار البنائية والمعالم الأرضية خاصة السدود والمزارع بأن القحطانين كانوا أصحاب العلم والثقافة،وأما العدنانيون فقد نالوا من الأسفار والتجارة واللقاء وبعض المعتقدات المتوارثة والوهم العام ما كان يكفي لقضاء الحياة في ضوء العقل والعلم،فكان عندهم علم الطب والفراسة والقيافة والمعرفة عن الحيوانات وخاصة الجمال والفروس وعن الرياح والكلأ والعشب، كما تدل الأشعار الجاهلية والوصايا والخطب على جميع هذه العلوم،ولو أجملنا الكلام عن أحوال العرب الاجتماعية والعقلية والثقافية،لقلنا إنهم كانوا متفرقين حسب السياسة والحكومة والاقتصاد واللغة ولكن وحدتهم القبيلة والحكم والأخلاق السامية والعادات العالية. وكانت الأمة العربية غنية وثرية حسب الأدب وخاصة الشعر،لم يدعوا من معاني الحياة ومقتضياتها إلا سجلوها في الشعر وقيدوها في الأدب، ودققوا تعبير كل معنى وأحسنوا بيان كل كلام،لكل عاطفة ولكل موقع اخترعوا صنفا من أصناف الكلام ونوعا من أنواع الشعر.ويدل عليه الأشعار التي ورثنا منهم بصورة "المعلقات السبع" وغيرها. فالأمة التي بلغت من تطور التمدن الأدبي أوجه هل يناسب أن نقول إنهم كانوا على أقل حظ من التمدن الاجتماعي والعقلي؟

الثقافة العربية في العصر الإسلامي

ولما طلعت شمس الإسلام في أرض العرب عام 571م،لقيت الأمة العربية مجتمعها وثقافتها وعقليتها التقلبات والتصرفات،وأثر الإسلام على كل ناحي من نواحي الحياة،وأعطى طريقة جديدة للحياة،ومنهجا جديدا للعيش والمعاشرة،وقضى على النزاعات الدينية والخلافات المذهبية وسلكهم في سلك واحد وصبغهم في صبغة الدين الواحد،فوهبهم نعمة عبودية الله الواحد،وحررهم من عبودية الأصنام الكثيرة،وغير أخلاقهم السيئة بالأخلاق الحسنة والعادات القبيحة بالسجايا الجميلة والعصبية الجاهلية بالعصبية الإنسانية والحمية الرذيلة بالغيرة المتدينة،ولم يكن للعرب حكومة وسيادة من قبل،ولكن قام رسول الله ﷺ بتوحيد صفوفهم وجمع شملهم،فانضموا تحت راية الإسلام والقرآن،وغير منهج كل من سلوكهم وعاداتهم وتقاليدهم بمنهج جديد وطريقة جديدة، فالشجاعة والشهامة والتفاخر والتكاثر وغيرها من العادات التي كانت من أسباب الفضائل والحسنات في الجاهلية،جعلها الإسلام دواعي رضا الله ورسوله إذا استعملت في سبيل الدين والإنسانية،وإذا دعم بها الحق والإنصاف وإذا سد على وجه الظلم والجور،والعصبية والحمية الجاهلية والأنفة والغيرة الذميمة.

وتعرف العرب على أقدار جديدة للحياة،وقيم عالية منها،ومن هذه الأقدار كانت عقيدة التوحيد أي الإيمان بالله وحده ومهاجرة عبادة الأصنام،كما يقول القرآن:"إن الله لايغفر أن يشرك به،ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء"[3]،ثم حث القرآن على أن يتحلوا بصفات عالية وأخلاق سامية،يقول القرآن في مكان آخر:"وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا،وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما،والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما،ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون،ومن يفعل ذلك يلق أثاما،يضاعف له العذاب يوم

[3] سورة النساء رقم الآية: 48

القيامة،ويخلد فيه مهانا،والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما"[4]،وجاء الإسلام بالثورة في المعايير العقلية أيضا،إنه دعا الناس إلى العلم والمعرفة،والتفكير في المظاهر الفطرية والأسباب الطبعية،وكات أول سورة نزلت على محمد ﷺ تحدثت عن العلم:"اقرأ باسم ربك الذي خلق،خلق الإنسان من علق،اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم،علم الإنسان ما لم يعلم"[5]،وفي مكان آخر يقول:"إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم،ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار"[6]،ثم دعاهم الإسلام إلى المساواة والعدالة الاجتماعية،وقمع بذور الفضيلة والكرامة بسبب النسب أو القبيلة واللسان،وأقام العمل والجهد معيارا للمفضالة وقال القرآن:"يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا،إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[7].

وقد عمت القراءة والكتابة بين العرب بعد أن اعتنقوا الإسلام دينا لهم،إذ هو حث عليهما وبدأوا يكتبون آيات القرآن،وازدادوا ثقافة وعلما عندما انتشرت كلمة الإسلام خارج العرب، واضطروا إلى استخراج أمور فقهية من القرآن والحديث،فأعملوا الاجتهاد والأفكار لمعالجة مشاكلهم اليومية،وبرزت فرق المعاندين والمعارضين للإسلام،فاستعد المسلمون للدفاع عنه خير دفاع،واستعانوا له بالعقل والفكر والرأي العام أكثر من القرآن والحديث. كما أثرت معتقدات الإسلام حضارة العرب وعقليتهم ،كذلك مثلت الفتوح الإسلامية دورا بارزا فيها،ففي القرن الأول للهجرة إن المسلين فتحوا البلاد التي كانت مهدا للحضارات و موطنا للعلوم و الفنون و مركز

[4] سورة الفرقان رقم الآية: من 63 إلى 77

[5] سورة العلق رقم الآية:من 1 إلى 5

[6] سورة آل عمران رقم الآية:من 190 إلى 191

[7] سورة الحجرات رقم الآية:13

للآداب واللغات؛ففارس ومصر والعراق والشام كانت ذات الحضارات الراقية التي حكمت العالم وانعكست ملامحها في العقلية العالمية،فاقتبسوا من أهاليهم عقليتهم ومدنيتهم كثيرا،وتعلموا منهم فن إدارة الحكومة ومصالحها،لأن ليست لهم تجربة مسبقة بهذا الصدد.

الثقافة العربية في العصر الأموي

ولما انحلت عقدة الخلافة الإسلامية سنة 41هـ،وجد المسلمون أنفسهم على طرق مختلفة و سبل متفرقة لا تهديهم إلى مركز واحد،ولا تبلغهم منزلة واحدة،فمنهم من أشهروا السيوف ضد الأمير معاوية _رضي الله عنه_وتشيعوا لعلي _كرم الله وجهه الكريم_،فصاروا أهل التشييع وكانوا في العراق في الأغلبية،ومنهم من أيدوا الأمير معاوية ضد علي،وشاركوا في المحاربة، وكانوا في الشام ومنهم من خرجوا ضد كل منهما،فصاروا من الخارجيين،وكان الناس في الحجاز يعضدون خلافة عبد الله ابن زبير _رضي الله عنه_. ومن أهم إيجابيات لهذه المحاربة و المشاكسة أن العقلية العربية تطورت كثيرا،لأن كل فريق كان يستشهد بالقرآن و الحديث في إثبات موافقهم و ادعائهم.

وكانت تعاليم الإسلام والقرآن لم تجد أهمية بالغة عند كل من أسلم بعد فتح مكة في نفس الحماسة والإخلاص التي هي حظت عند السابقين الأولين من الأنصار والمهاجرين،وهي لم تجيئ بالثورة والانقلاب في كل قلب،ولأجل ذلك نجدهم منحرفين عنها عندما وفي رسول الله ﷺ ،فمنهم من ارتدوا عن الإسلام ومنهم من رفضوا تأدية الزكاة،وكذلك بعضهم أرادوا أن يخففوا الصلاة،وبعد رحلة عمر _رضي الله عنه_عاد العرب إلى ما كانوا عليه من المحاربة والمنازعة والعصبية والنزعة الجاهلية والشراب والقمار والغزل،وإلى الخلافات النسلية بين العرب والعجم و القحطانيين و العدنانيين،ثم بين الهاشمين و الأمويين. وازداد الخليج بين الناس بسبب الخلافات السياسية التي اشتعلت نارها في عصر بني أمية من 41هـ إلى 132هـ.ويمكننا أن نلمح

ومضات المجتمع ذلك الوقت بالأشعار التي قرضت؛بسبب التأثير الإسلامي أن المجتمع غلبته التعاليم الإسلامية، فاتخذ الأخلاق النبيلة،واحترز عن كل نوع من أنواع المنكرات والفواحش والسيئات،فمن نتاج هذه الثورة والتغير أن غاب الغزل الصريح من المنظر، إذ يتوغل الشاعر في المفسدات والمعربدات، وأخذ الغزل العذري مكانه،وهو غزل نقي طاهر،يتحذر فيه الشاعر من صراحة البيان ووضاحة الوصف،ويحترق في أمنية الشوق والحنين إلى الحبيب،ويعيش حياة الحلم والخيال،كما يقول قيس بن ذريح عن لهفته:

إلى الله أشكو ما ألاقي من الهوى   ومن حرق تعتادني،وزفير

ومن ألم للحب في باطن الحشا   وليل طويل الحزن غير قصير

ولكن سرعان ما بدأ الشعراء يرجعون إلى ما كانوا عليه من الغزل الصريح و الهجاء فقام أخطل المتوفى سنة 95هـ بهجو الأنصار وكذلك قام عمر بن أبي ربيعة المتوفى سنة 93هـ بقرض الأشعار في الغزل الصريح هو يقول مثلا:

ألا ليت أني يوم تقضى منيتي   لثمت الذي ما بين عينيك والفم

وليت طهوري كان ريقك كله   وليت حنوطي من مشاشك و الدم

ألا ليت أم الفضل كانت قرينتي   هنا أو هنا في جنة أو جهنم

ثم ما حدث بين جرير المتوفى سنة 110هـ و الفرزدق المتوفى سنة 110هـ من النقائض الشهيرة والجدال الشعرية، هي أحيت جميع ذكرى الأيام الجاهلية التي دفنتها الإسلام، وهما بعثا فيها حياة جديدة وقد ضمنت النقائض أكثر من ثمانين شاعرا،وكانت السلطة الأموية نفسها

تؤيدها وتنميها،وقد تأصلت هذه المفاخرة النسلية أو المجادلة النسبية فيما بعد بين الناس،فهم اختلفوا فيما بينهم في تفضيل شاعر على آخر، ولم يشفوا من هذا المرض العضال إلا بعد حملة تاتار على بغداد سنة 656هـ.

ولم تدع أمور الحكومة والفتوحات الإسلامية خلفاء بني أمية أن يرعوا اهتماما كبيرا بالعلوم و الفنون،فكان عصرهم عصر هلع واضطراب، لا نجد فيه طمأنينة ولاهدوء، فهم أولا اشتغلوا في إخماد الثورة والطغيان من قبل الخوارج وأهل التشييع وبني هاشم،التي كانت تهدد بلاطهم،ولما فرغوا من داخل الأمر،حفلوا بالخارج،وضموا بلادا جديدة إلى الدولة الإسلامية مثل الهند وبلاد إفريقيا وبلاد أسبانيا.والأعمال العلمية و الفنية تقتضي من صاحبها الفراغ الكامل والتركيز التام والعناية الشاملة،لأجل ذلك قد تولدت وتطورت عندهم بعض العلوم الإسلامية فقط وذلك بسبب مقتضيات العصر وحاجات الزمان،فاخترعوا علم التفسير لفهم القرآن ووضعوا قواعد علم النحو إشفاقا على اللغة العربية من الضياع والاختلاط من الأعاجم،ثم وضعوا علم الفقه لاستنباط الأحكام الإسلامية،وقيدوا الحديث في الكتابة خوفا من التلف والاندراس.

ومما يليق بالذكر في سياق الثقافة العربية في عصر الخلافة الأموية أننا لا نجد العناصر غير العربية نحو الفارسية و الرومية أنها تسربت إلى الثقافة الإسلامية و لا إلى الخلافة الأموية؛لا في المصلحة ولا في المكتب، من الفراش و الكاتب إلى الحاكم والجندي والقائد و الشاعر كلهم كانوا من العرب،هم مالوا إلى العرب و جنحوا لحضارتهم،اكتفوا بذكر أيام العرب و التلذذ بقصائد عربية فقط،ولم يرغبوا في فلسفة ما،كما يقول أحمد أمين في ضحى الإسلام:"أن العهد الأموي كان عهدا بدويا_في الجملة_ظهرت فيه سيادة العرب على غيرهم من الأمم أوضح ظهور،والعرب في ذلك العصر لم يتأصل فيهم ميل إلى فلسفة،إنما كان يعجبهم الأدب العربي والتحدث بأيام العرب،ولذة خلفائهم إنما هي في الإصغاء إلى قصيدة عربية،والاستفسار عن لفظ

غض،وما إلى ذلك"[8] فكانت الثقافة العربية خالصة،منزهة من كل امتزاج واختلاط، جعلوا عاصمتهم مدينة عربية،ألا وهي دمشق،وقاموا بتشجيع العرب في كل أمر، ودحروا العجم،بسبب هذا كان الفرس مع بني عباس البغاة الذين أقلعوا السلطة الأموية.ويناسبنا أن نتكلم عن منطقة الحجاز وسياسة الأمويين فيها.من اعتزاز هذه المنطقة أنه اشتعل فيها نور الهداية والحق أولا ثم بث إلى جميع أرجاء العرب،كانت هي أرض النبي _ﷺ_ وأجلة الصحابة بمن فيهم المهاجرون والأنصار والسابقون الأولون _رضي الله عنهم جميعا_،ولكنها صارت في عصر الأمويين أكبر مهد للغناء واللهو و أكبر مركز للعبث والجنون،و كان من سياسة الأمويين وحكمتهم أن يشتغل بنوهاشم و من كانت لهم كلمة علياء في السياسة والحكومة خوفا على الحكومة و إشفاقا على السلطنة،حتى قال الإمام مالك ابن أنس رضي الله عنه المتوفى 179هـ عن نفسه:"نشأت وأنا غلام أتتبع المغنين وآخذ عنهم،فقالت لي أمي:يا بني إن المغني إذا كان قبيح الوجه لا يلتفت إلى غنائه،فدع الغناء و اطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه.فتركت المغنين واتبعت الفقهاء فبلغ الله بي عز وجل ما ترى"[9].

الثقافة العربية في العصر العباسي

ثم جاء العصر العباسي فدخلت الثقافة الإسلامية في طور جديد،في هذا العصر هي خلعت لباسها العربي الجميل،وارتدت زيا مصنوعا من الثقافات المختلفة مثل الفارسية واليونانية الرومانية والهندية والتركية،وكانت صبغة الفارسية أكثر ظهورا ووضوحا.ومن أسباب انتشار الثقافية الفارسية في هذا العصر أن الخلافة العباسية أسست على أكتاف الفرس من خراسان و المناطق المجاورة،وكانت خراسان مركز الثورة العباسية ضد الأمويين،فلما تولى بنو العباس

---

[8] ضحى الإسلام لأحمد أمين،الجزء الأول،المكتبة التوفيقية القاهرة،مصر،رقم الصفحة:277

[9] تأريخ الأدب العربي ،لأحمد حسن الزيات،اتحاد بكدبو ديوبند،يوفي،رقم الصفحة:82

مهام الدولة الإسلامية،جعلوا بغداد عاصمة لهم بدلا من دمشق،لأنها كانت أقرب مدينة إلى بلاد فارس،ثم هم وضعوا منصب الوزارة في الخلافة،وهذا المنصب في أصح تعبير كان احتكار أهل الفارس،اعتلوا إليه من جيل إلى آخر؛فكان أول وزير أبو سلمة الخلال فارسيا،ثم صار يحيى بن خالد البرمكي وزير هارون الرشيد،كذلك استوزر المأمون الفضل بن سهل والحسن بن سهل،وهؤلاء الوزراء كانوا أولي الثقافات العالية وأصحاب العلوم والفنون،كانت لهم عهد بالطب والهندسة والسياسة والحكمة،فبدأوا ينقلون إلى اللغة العربية ما كانت في الفارسية من العلوم والفنون،وهذا أثر الأدب العربي والثقافة العربية كثيرا،وفي هذا الزمان كان العجم وخاصة الفرس أقدر الأمم على التأليف والتدوين بسبب حضارتهم الغنية وثقافتهم العظيمة؛أكثر النحاة واللغوين والمحدثين والمفسرين وأصحاب علم الكلام كلهم كانوا من العجم،كما يقول أحمد أمين:" ولكن مما لا شك فيه أن العجم _وخاصة الفرس_ كانوا في جملتهم أقدر على التدوين والتأليف للسبب الذي ذكره ابن خلدون،وهو تعمقهم في الحضارة، ولأنهم مرنوا من قديم على التأليف بلغتهم هم وآباؤهم؛فلما دخلوا في الإسلام وتعلموا العربية كان تأليفهم بالعربية سهلا يسيرا،لأنه ليس إلا احتذاء للمنهج،وإن اختلف الموضوع واللغة"[10] .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الثقافة الفارسية أخذت تدب إليها حياتها،بعد أن غلبت عليها الثقافة الإسلامية والعربية؛وتغلغلت عاداتها وتقاليدها في الناس كثيرا،فكانوا يحتفلون يوم النوروز، وصارت القلنسوة الفارسية من ملابس القضاة وزعماء الدولة،وكان الفضل بن سهل في زمان مأمون المتوفى سنة 218هـ طلب من جميع العمال أن يرتدوا قلانسا خضراء بدلا من السوداء على عادات ملوك كسرى والمجوس.ثم هذا العصر شهد الترف والغناء واللهو والعبث والمجون كثيرا،والدقة والتأنق في اختيار اللباس والطعام،كذلك الزينة في العمارة والبناء،وقد عم النبيذ وتداول الشراب كما يقول أحمد أمين:"والفرس من قديم ميالون إلى الإفراط في الشراب،والإفراط

[10]ضحى الإسلام لأحمد أمين ،الجزء الأول،المكتبة التوفيقية القاهرة،مصر، رقم الصفحة:195

في الغناء حتى وصفهم "هيرودوت"بالإمعان في ذلك والغلو فيه،وتصريفهم شئون الدولة وهم سكارى"[11]، هم أذاعو هذه المظاهر كثيرا بين الناس،كان إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق الموصلي واضع علم الموسيقى من الذين أشاعوا اللذة والمتعة بين الناس وعلموا الجواري ودربوهن لهذا العمل، ومن نتيجة هذا الترف والإسراف والإمعان نجد الدعارة والخلاعة انسلت إلى الأدب العربي على أيدي بشار بن برد المتوفى سنة 167هـ ،وأبي نواس المتوفى سنة 199هـ ،ومطيع بن إياس.وفي نفس العصر لا نجد مثل هذا الترف واللهو في مصر والشام والأندلس،ولم نجد كذلك أن آدابها دخلت فيها آثار الدعارة.

أما الثقافة اليونانية والرومية وأثرها في ثقافتنا،فهناك الفرق بينها وبين الثقافة الفارسية،هي لم تتدخل في الثقافة العربية إلا إذا استولى المأمون المتوفى سنة 218هـ زمام الخلافة سنة 198هـ،ثم هي كانت قليلة المدى ومحصورة في الأوساط العلمية فقط،لم تنل شعوبية بين الناس ،هي جاءت بالطب والفلسفة والمنطق إلى اللغة العربية،أما علم النجوم وعلم الحساب فهما كانتا مدينتن للثقافة الهندية التي لحقت بالعربية بواسطة الثقافة الفارسية،وهي أيضا كانت على المستويات العلمية.وكانت الحرية في أمور الدين وفرت للناس الفرص لاختيار نحلة دون أخرى ولاعتناق فلسفة دون غيرها،وهذا أدى إلى ازدياد الفرق والشيع في الإسلام،وسبب كذلك نشر العلوم والفنون،فكانت كل فرقة تستشهد بالقرآن والحديث في إثبات مواقفهم وآرائهم.أما العناصر التركية فهي تغلغت في أحشاء السياسة عندما جلس المعتصم بالله المتوفى سنة 227هـ على كرسي الخلافة سنة 218هـ.

---

[11]ضحى الإسلام لأحمد أمين ،الجزء الأول،المكتبة التوفيقية القاهرة،مصر، رقم الصفحة:199

الثقافة العربية في العصر المملوكي والتركي

وفي سنة 656هـ اقتلع هلاكو خان الخلافة العباسية،ومن هنا بدأ عصر جديد للثقافة الإسلامية بما فيها الثقافة العلمية والثقافة الاجتماعية،وتخففت نار الخلاف و النزاع بين مختلف المذاهب الإسلامية على أساس العقيدة والإمامة والفقه مثل أهل السنة والشيعة، ولم ندرك الشدة والعنف في النزاع بين الأحناف والشافعيين وغيرهم كثيرين،وكانت هذه النار تحرق عامة الناس وخواصهم سواء من قبل.وقد تغيرت مراكز المسلمين من بغداد إلى القاهرة ودمشق،وأمنت هذه المناطق ذلك الوقت من عاصفة التاتار،لأجل ذلك لجأ رجال الدين إليها،فنفقت سوقها العلمية والثقافية والفنية،وتولت مهامها الأيوبيون ثم الأتراك،وفي النهاية جاء الأمر إلى العثمانيين سنة 923هـ، وبالإضافة إلى هذه البلاد،صارت بلاد إفريقية الشمالية كالمغرب موطنا جديدا لثقافة المسلمين الذين نزحوا من بلاد أسبانيا.

ونظرة خاطفة على مجتمعاتهم وتقاليدهم تبين أنهم صاروا في صف الدفاع ولم يكونوا مهاجمين مزيدا لثقافتهم،هنا لم يمتلكوا أرقاء وجواريا،فلم يكن لهم اختلاط التناسل ولا امتزاج التوالد،ولم يحتاجوا إلى أمة أخرى لإدارة أمور السياسة،فلم توجد المصارعة والمنافسة بين الأمتين والثقافتين كما رأيناها في العصر العباسي، لأن حكومتهم كانت قليلة الأطراف وصغيرة الحدود، ولأنهم نالوا تجربة طويلة في هذا الميدان،ولأن ليست لهم سيادة كسيادة العصر العباسي في الحكومة ولا في العلم،ولا الحركة العلمية والمجادلة البحثية والمناظرة العقلية التي كانت تشحذ عقول الناس وتزيدها قوة و حدة،إنها توقفت وأصابها الانجماد والتعطل، وتخربت مجالسها وبدأ الغبار يثور منها،وتقلص عنها ظل الملوك والأمراء والحكام،فصارت منحصرة في المدارس وبين أولي العلم وأهل الذوق والفن فقط،وما استطاعوا أن يخترعوا فنا من الفنون أو علما من العلوم أو أن يجيدوها من تلقاء أنفسهم،فصرفوا هممهم إلى تشريح ما كتب الأسلاف وتذييل الحاشية وتعليقها على ما كان عويصا منه،كذلك بعضهم عكفوا على جمع الألفاظ العربية وترتيب

تراكيبها من جديد،فكتبوا القواميس والمعاجم وكان لجامع الأزهر في القاهرة المؤسس سنة 359هدورا بارزا في إبقاء الثقافة العربية والإسلامية وتنميتها.

وقد ذهبت ريح الثقافة الإسلامية عن المسلمين مع ذهاب الخلافة في العصر الحديث،على الرغم من أنه عصر النهضة واليقظة حسب الأدب العربي،ولكن العلوم الأخرى مثل علم الطب والتكنالوجيا والتأريخ والعلوم الحديثة وغيرها حتى الآن بعيدة من أيدي المسلمين والعرب، يحتكرها الإنجليز تمام الاحتكار،وكيف نتصور الثقافة العربية والإسلامية أنها ستطور وحاملوها يعيشون في العبودية سياسة وعلما!أو كيف يكتب لها الازدهار، وأصحابها ضحايا التدهور والانحطاط! وحظها في أيدي غيرهم الذين يميلون إلى ثقافاتهم ولغاتهم،وهم يحاولون تمام المحاولة تطورها وترقيتها.

وقد ازدادت مشاكل العرب والمسلين واضطراباتهم في القرنين: التاسع عشر الميلادي و العشرين الميلادي،عندما صارت بلاد العرب لقمة سائغة للمستعمرين المسلحين بأسلحة علوم جديدة،ولم تنل معظمها الحرية إلا في الجزء الثاني من القرن العشرين الميلادي، ثم بعد الاستقلال صارت متفرقة ومنقسمة في دويلات سياسة وجغرافية بين الملوكية والديموقراطية، وازداد الخليج كذلك بين النحل المتعددة للمسلمين: بين أهل السنة وأهل التشييع والمقلدين وغير المقلدين، وبينهم علاقات متوترة وعصيبة حتى الآن.

لو أمعنا النظر،وجدنا أن الثقافة الإنجليزية أثرت على كل ثقافة وتمدن بدون استثناء أكثر من أي ثقافة أخرى،ومن المستحيل أن نقي ونحذر أنفسنا من لهيبها؛من الطعام و اللباس إلى التعلم والتعليم واللعب في كل موضع ومكان لها السيادة والشعوبية.هي غلبت على الثقافة الإسلامية،وانتشرت في بلاد العرب،وقبلها الناس،وأثراتها تغلغلت في أحشاء المجتمع العربي،وخاصة بسبب الجامعات والمدارس الإنجليزية والوفود العلمية التي رجعت من بلاد أوربا بعد إكمال التعليم،مثلا هم بدأوا يحتفلون عيد الميلاد كعادة الإنجليز،كذلك أخذوا يفرحون

ويتمتعون إذا حلت السنة الجديدة حسب التقويم المسيحي،وإن الهياكل الاجتماعية و العلمية كلها بنيت على أساس الثقافة الإنجليزية.

وبعد الحرب العالمية الثانية صارت المناطق العربية من أكبر الميادين للحرب والضرب،و يرى أنها ستكون مركزا للحرب الثالثة العالمية،وقوع مختلف الحوادث الكبرى خاصة في الأيام الحاضرة تشهدها؛ إن المخازن الذهبية بصورة النفط والبترول التي اكتشفت في أرض العرب، سهلت شوؤن العرب الاقتصادية إلى حد كبير ،وبسبب ذلك صارت أسيا الغربية ينابيع التجارة و الاقتصاد، ولكن الدول الأمريكية والغربية هي التي لا تزال تنفذ جميع الأمور بهذا الصدد، وتستعملها لمنافعها الاقتصادية، وبصورة تدريجية تدفع دولة بعد أخرى إلى أحفار الهلاكة والدمار، وبإقامة دولة إسرائيل المحتلة في أرض فلسطين،إن الإنجليز طعنوا الخنجر في ظهر العرب والمسلمين، وصارت مشكلة فلسطين وإسرائيل اليوم من أخطر المشاكل ليست للعرب فقط بل للعالم كله،تهدد وجودها،وتشكل لها الخطر،وقد مرت بلاد العرب وثقافتهم في الأيام الراهنة من أوضاع مختلفة هامة تجدر بأن يلقى عليها ضوء بسيط؛ قبل سنوات هبت عواصف الربيع العربي التي سرعان ما استأصلت عددا من الدول العربية التي كانت تحت سلطان الملوكية،ولكنها فيما بعد صارت الخريف العربي،إذ هي لم تثمر في حق الشعب العربي،بل جاءت بالخسارة أكثر من المنفعة،وإنما المستعمرون هم الذين حصدوا زراعتها،أوضاع السوريا والليبيا واليمن الراهنة خير مثال لها.والآن دولة العراق تحترق بين أهل السنة والشيعة والأكراد،وقد ظهرت فيها فتنة جديدة باسم دولة العراق و الشام (داعش)التي تحب إعادة الخلافة الإسلامية إجبارا وإكراها.

الباب الثاني

الدكتور طه حسين حياته وأعماله

فيه ثلثة فصول

- الدكتور طه حسين حياته وأعماله
- الدكتور طه حسين كما يراه رجال الأدب والنقد
- قيادته في المجيئ بالحداثة في اللغة والثقافة العربية

الفصل الأول

الدكتور طه حسين حياته وأعماله

ولد طه حسين في الرابع عشر من شهر نوفمبر عام 1889م في حي الكيلو من مدينة مغاغة لحسين علي سلامة،وتربى ونشأ في نفس الحي،وفي عام 1895م أصيب بمرض الرمد الذي ذهب بعينيه،ففقد بصارته وبقي أعمى طول الحياة،وقد أتم تعاليمه الابتدائية في كتاب الحي حسب التقاليد الشائعة، في هذه المرحلة حفظ القرآن الكريم وهو لم يبلغ من عمره إلا تسع سنوات،وكذلك استظهر ألفية ابن مالك،وهو كتاب معروف في علم النحو عامة يحفظه طالب اللغة العربية في باكورة الزمان التعليمي.

ثم غادر كاتبنا إلى القاهرة للالتحاق بجامع الأزهر في الرفاق مع أخ مجاور له عام 1902م، فقرأ علم النحو وعلم الصرف وعلم البلاغة وعلم الفقه والتفسير والمنطق، وتلمذ على الاساتذة الكبار مثل الشيخ محمد عبده المتوفى سنة 1905م والأستاذ المرصفي المتوفى سنة 1931م، والشيخ محمد بخيت والشيخ مصطفى المراغي المتوفى سنة 1945م وغيرهم،ولكن جو الأزهرالمغلق للتعلم والتعليم لم يسغ طبيعته الحرة،حيث إسداء الأسئلة إلى الأساتذة لم يكن مروجا، وإذا سئلوا،فلم يصيبوا الأجوبة ولم يقنعوا الطلبة،ففي عام 1908م التحق بالجامعة المصرية القديمة عندما أنشئت في نفس السنة،ولكنه لم يترك الأزهر تمام الترك،بل هو لايزال يختلف إليه وإلى دروسه كلما وجد الفرصة من الجامعة،وكان نظام التعليم الجامعي مختلفا تمام الاختلاف مما هو تعود في الأزهر،فطريقة الأول مؤسسة كل التأسيس على ما يعرف بالقديمة والمتذللة،أما الثاني فهو بني حسب المنهج الجديد،فهنا استطاع أن يجد فرصا قيمة للمناقشة والمباحثة مع الأساتذة والطلاب كليهما بدون أن يعيبه أحد بما له،كما هو ابتلي في الأزهر،وهنا هو أقبل يروي غليله العلمي من العيون المختلفة الجارية ذلك الوقت، فدرس الجغرافية وتأريخ

العالم وتأريخ مصر والفراعنة والفلسفة من الأساتذة الكبار مثل أحمد زكي أبو شادي المتوفى سنة1955م وعدد كبير من المستشرقين نحو اجناتسيو جويدي،ليثمان،نلينو،وسانتلانا،وفي هذا الأثناء أخذ يمارس الصحافة أيضا فكتب في جريدة "العلم" التي كانت تصدر تحت رئاسة عبد العزيز جاويش المتوفى سنة 1929م وكذلك في "الجريدة" التي تصدر تحت رئاسة الأستاذ أحمد لطفي السيد المتوفى سنة 1963م.

وفي عام 1914م هو قدم رسالة الدكتوراه التي كان عنوانها "ذكرى أبي العلاء" وناقش، فنال الشهادة بدرجة جيد جدا،فصار كاتبنا أول طالب في تأريخ الجامعة المصرية من حصل على الرسالة،ثم بعثه الجامعة إلى فرنسا بعد أن تعلم الفرنسية ونجح في امتحان الالتحاق، فسافر إلى مدينة "مونبلييه" مع وفد من الطلبة الممتازين.وفي مدينة مونبلييه أتقن اللغة الفرنسية تمام الإتقان وتعلم اللاتينية، حتى سهل له فهم الدروس،ودخل "جامعة مونبلييه" فتعلم علم النفس والأدب الفرنسي والتأريخ الحديث،وكانت تجري كل الأمور حسب العادة إذقررت الجامعة المصرية إعادة طلبتها بسبب الفقر المالي والإفلاس، فعادواجميعا إلى مصر عام 1915م،فظلوا فيها ثلاثة أشهر،حتى مد السلطان حسين كامل إليها يد المعونة المالية،فبعثوا مرة أخرى إلى فرنسا وهم قصدوا إلى "جامعة السوربون" في باريس،هنا قرأ مختلف العلوم والفنون منها التأريخ القديم وتأريخ الإغريق وتأريخ الرومان والأدب الفرنسي والفلسفة والاجتماع وفلسفة ديكارت والتأريخ البيزنطي والتأريخ الحديث والجغرافية،وكان من أهم أساتذتهم بلوك وأولار جلوتز ولانسون وشارل ديل ودور كاييم.وبجانب الجامعة كان يحضر "الكوليج دى فرانس" أي كلية فرنسا أيضا حيث كان يدرس فيها القرآن الكريم وعلم النفس،وفي هذاالأثناء وقع في شرك الحب مع فتاة فرنسية "سوزان"،ولم ينته به الحب إلا إلى الزواج،ثم هو قدم رسالة الدكتوراه في فلسفة العلامة عبدالرحمن ابن خلدون المتوفى عام 808هـ وكان موضوعها: "فلسفة ابن خلدون الاجتماعية" فنال درجة الامتياز كما حصل على الدبلوم في الدراسات العليا عن التأريخ القديم ودراسة اللاتينية والإغريقية،ثم هو رجع إلى بلاده مصرعام 1919م.

من هنا قد انفجر يوم جديد في حياته العلمية ،ودخل في مرحلة العمل والتنفيذ وحان له الوقت أن يطبق ما جاء به من أوربا من جدة في منهج التفكير والتنقيب والتعليم والتدريس والانتقاد والمطالعة، فانضم إلى هيئة التدريس لجامعة مصر القديمة،وجعل يدرس ما يعرف بالتأريخ القديم و الروماني،ثم صارت الجامعة حكومية فنال منصب الأستاذ للأدب العربي لكلية الآداب عام 1925م،ولم تدع طبيعته المضطربة والمتدفقة أن ينحصر في نشاطة واحدة فقط ،فبالإضافة إلى عملية التدريس انشغل في الصحافة والكتابة أيضا،فعام 1922م أخذ في الكتابة في جريدة "السياسة" اليومية في الحقل الأدبي وأشرف عليه، وهذا كان أحسن رصيف لنشر مقالاته الأدبية والعلمية والتأريخية،وإذاعة آرائه في أوساط أهل العلم والأدب،ثم طبع كتابه المثير الضجة والمسبب الضوضاء"في الشعر الجاهلي" سنة 1926م.فاندلعت احتجاجات ومظاهرات في طول بلاد مصرمن الجامعة إلى البرلمان ضد الكاتب بسبب ارتيابه وشكه في أصلية الشعر الجاهلي وبعض التقاليد الإسلامية،وطولب بعزله من الجامعة،ولم يهدأ الأمر إلابعد أن سحب الكتاب من الأسواق وحذف منه بعض من الآراء المتنازعة وطبع مرة أخرى باسم "في الأدب الجاهلي"،وفي عام 1928م عين عميدا لكلية الآداب،فبقي على هذاالمنصب حتى أقيل منه عام1932م عندما هوخالف خطة الجامعة لمنح شهادات الدكتوراة الفخرية بعض السياسيين الذين لا يستحقونها في عينيه العلمية،فأقبل على الصحافة وكتب في جريدة "السياسة" اليومية وجريدة "كوكب الشرق"العربية مدة سنتين،ثم في عام 1934م أعيد إلى منصب الأستاذ في كلية الآداب،وفي عام 1936م صار عميدا للكلية وظل على العمادة حتى عام 1939م ،وفي نهاية نفس العام نال مسؤولية المراقبة للثقافة في وزارة المعارف واستمر في هذا المنصب مع بقائه الأستاذ حتى اتخذه وزير المعارف أحمد نجيب الهلالي مستشارا فنيا للوزارة عام 1942م كما هو صار مديرا لجامعة الأسكندرية نفس العام،وفي عام 1944م تقاعد عن جميع المسؤوليات،فكانت له فرص غنية للكتابة والدراسة والجولة والسياحة في أطراف العالم،فألف كتابه الشهير "مستقبل الثقافة في مصر" خلال هذه المدة،وزار البلاد الغربية،وفي عام 1950م تولى كاتبنا مهام وزارة المعارف،فجاء بالثورة والانقلاب في هذا الميدان،ونفذ أمر مجانية التعليم

الثانوي وديموقراطيته التي سبق أن تكلم عنها في كتابه "في مستقبل الثقافة في مصر"ولقد تمت مجانية التعليم الابتدائي عام 1944م في وزارة أحمد نجيب الهلالي،وكان كاتبنا في ذلك الوقت مستشارا له،وكان يقول إن حرية التعليم أكثرأهمية من حرية الوطن، ولم يقتصر على مجانية التعليم فقط بل هو قام بالإصلاح و التقويم مزيدا،ففتحت المدارس والمعاهد الجديدة في عدد كثير، وأضيفت المراكز والأقسام الحديثة في القديمة منها واهتم أخلص اهتمام بتحسين أوضاع المعلمين المالية ،وفي هذه الفترة الخطيرة كثرت عنده الدعوات من كل صوب لإعطائه شهادات الدكتوراة الفخرية ،ومن هذه الجامعات كانت:"جامعة أكسفورد" و"جامعة روما" و"جامعة مونبلييه" التي كانت مهدها التعليمي الأول في فرنسا،و"جامعة أثينا" و"جامعة ليون "وفي عام 1952 الميلادي هو انعزل من الوزراة بعد أن شاعت الفوضى في البلاد، وقبل خمسة شهور من أن تشهد مصر ثورة شهيرة في تلك السنة،فتهالك في الأعمال العلمية و الفكرية وأهم من تأليفاته قد جاءت في هذه الفترة، هي :مثل "المعذبون في الأرض" و "الفتنة الكبرى"كما حضر في المؤتمر للسلام المسيحي المعقد في فلورنسا وتحدث فيه عن الإسلام والمسيحية وما فيه من رسالة السلام والأمن للناس جميعا،وفي عام 1955 الميلادي هو رأس اللجنة الثقافية للجامعة العربية التي ضمنت عددا كبيرا من الممثلين من بلاد العرب كلها، وبعد أن فرغ هذه المهمة توجه إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وأدى ما كان على كتفيه من فريضة الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ،وكان لهذاالخبر دويا في عالم الصحافة،وهو لم يجب إلا أن قال:"ما بالكم تقحمون أنفسكم بين المرء وربه"؟[12]

بعد ذلك ابتدأ عهد التكريم والتقدير لأعماله الأدبية والبحثية والانتقادية،ففي عام 1958 الميلادي منحته مصر جائزة تقديرية في الأدب،وهو أول في جماعة الأدباء من تسلم هذه الجائزة،وبعد عامين هو اختير نائب الرئيس لمجمع اللغة العربية،كما هو صار رئيس التحرير

---

[12] ماذا يبقى من طه حسين،لسامح كريم،الهيئة المصرية العامة للكتاب،2007م،رقم الصفحة:133

لجريدة "الجمهورية" في نفس السنة،وفي عام 1963 الميلادي هو نهض بمسؤولية الرئاسة لمجمع اللغة العربية بعد وفاة الأستاذ أحمد لطفي السيد،ثم اعترافا لخدماته في ميدان التعليم والثقافة وهبت حكومة مصر قلادة النيل من الدرجة الأولى بمناسبة الاحتفال لعيد المعلم،وكذلك منحته هيئة الأمم المتحدة جائزتها عام 1973 الميلادي،ولكنه لم يتلقاها بسبب الموت، توفي عام 1973 الميلادي.

أسلوب طه حسين

لكل كاتب أسلوب يختص به ويمتاز به من الجميع بين من سبقه ومن خلفه،وطريق يستأثر به دون غيره،وكان طه حسين ذا أسلوب منفرد وطريق وحيد في كل فن من فنون الأدب وفي كل صنف من أصنافه،وهذا الأسلوب يختلف حسب المكان والفن ويتفاوت حسب الموضوع والبيان؛فما قرضه من أشعار،هي جاهلية الأسلوب وحماسية الموضوع،تمثل ما انطبع في خاطره من صور الشعر القديم،بينما نثره يختلف من هذا تمام الاختلاف،في هذا الصنف يتجلى أسلوبه في مختلف الحلل والأزياء،ههنا أسلوبه في القصة والرواية والسيرة الذاتية يتفاوت من أسلوبه في كتابة التأريخ،وأسلوبه في النقد يختلف من أسلوبه في كتابة البحث العلمي.فإذا يتناول شخصا بالنقد،فهو يعنف ويشتد ويلذع، لا يترك خصيمه إلا كأنه ملدوغ بالحية أو ملسوع بالعقرب هو مثلا ينقد مصطفى لطفي المنفلوطي المتوفى سنة 1924م صاحب "النظرات" و"العبرات" عن أسلوبه في كتابة القصة وما فيه من أخطاء لغوية، والاعوجاج في الإعراب، والانحراف في التركيب،والتعقيدات في المعاني،وكان طه حسين ذلك الوقت طالبا في الأزهر الشريف فيقول مخاطبا: "أيها الكاتب المجيد... أسعد الله صباحك وأحسن مغداك ومراحك... وقوم المزور من شأنك والمعوج من لسانك...وألهمك الصواب في الإعراب...والإحسان في البيان...فما أعلمك في كل ذلك إلا دعيا.بحثت عن معناك فلم أجده إلا غثا،وعن لفظك فلم

أجده إلا رثا،وعن أسلوبك فلم ألفه إلا مبتذلا،وعن صيتك فلم أجده إلا منتحلا"[13]، ويقول في مكان آخر:"عم صباحا أو مساء،واشرب هواء أو ماء،واستأجر من تشاء لما تشاء فقد وضح الحق وبرح الخفاء"[14] يظهر من هذه النصوص أنه كان شديدا جدا إذا كان ينتقد،وكادت تبلغ هذه الانتقادات في معناها منزلة الهجاء،وقد اعترف طه حسين هذه المبالغة والغلو في النقد،وتحول إلى ما هو مناسب في الأيام الراهنة، كما هو قال في بيان لصحيفة فيما بعد عندما سأله صحفي عن هذه الانتقادات:"كنت شابا يريد الشهرة على حساب كاتب كبير معروف"،ولما سأله الصحفي: "لقد أفرطت وتطرفت في النقد؟"فقال له مقاطعا:"تعني طول اللسان،إن سببه في رأيي هو عنف مزاجي،ولعل هذا السبب ولا سبب غيره"[15] ولكن أسلوبه في هذا الفن تغير بعد زمن قليل،واحترز من الحموضة والمر،وانتقل إلى ما هو معروف في هذه الأيام من الحلو والمر والجمال والقبح،كما نجد في كتابه "فصول في الأدب والنقد".

ونألف في كتابات طه حسين أثر القرآن الكريم جليا واضحا وناصعا لا غبار عليه،ويمكننا أن نرى ارتسمات هذه الأثرات في مختلف الجوانب لكتابته؛فهو حينا يستعمل نفس التعبير ونفس الجملة التي وردت في القرآن الكريم،وحين آخر يتخذ أسلوبه خلال الكلام،وبعض الأحيان يتبعه في المعاني؛فكثيرا ما هو أولا يجيئ باللفظ أو الجملة القصيرة،ثم يشرحها بالجمل التالية،كذلك يشرح الكلام مزيدا بالإتيان بالمتضاد والمتبائن من الكلام،وهذه النوعية من الأسلوب عامة وشائعة في القرآن الكريم. فمثلا هو يقول:"وكان كلامه واضحا لا يحتاج إلى تفسير،وكان سويا مستقيما لا قنقلة فيه ولا اعتراض عليه"[16] هنا أولا قال "واضحا" ثم أكد التوضيح بأنه لا يحتاج

---

[13] إقرأ، يناير،1968،عادل غضبان،دار المعارف مصر رقم الصفحة:56

[14] الأيام،الجزء الثالث،طه حسين،مكتبة إحسان لكناؤ،2010م،رقم الصفحة:21

[15] إقرأ، يناير،1968،عادل غضبان،دار المعارف مصر رقم الصفحة:57

[16] الأيام،الجزء الثالث،طه حسين،مكتبة إحسان لكناؤ،2010م،رقم الصفحة:7

إلى تفسير،كذلك قال "سويا مستقيما" ثم قال "لا قنقلة فيه ولا اعتراض عليه"،ويقول في موضع آخر عن أساتذته:"كان أحدهما سمحا لا يتكلف ولا يتصنع،وكان الآخر متكلفا متفاصحا لا يتكلم إلا العربية الفصحى مغريا فيها يملأ بها فمه وربما أضحك منها طلابها"[17]، كذلك هو يصف سفره إلى فرنسا و قد أحاط سفينته الطوفان والعاصفة فيقول:"وتستأنف السفينة سيرها وقد سكنت،فهي لا تعصف،وسكن الموج فهو لا يقصف"[18] ثم نتوجه إلى التعبيرات القرآنية التي نجد فيها ألفاظ القرآن وجملته،هو يقول عن نفسه وما صارت إليه عينيه:"قد ضرب بينه وبين الناس والأشياء حجاب ظاهره الرضا والأمن،وباطنه من قبله السخط والخوف القلق واضطراب النفس"[19]، وكذلك نجد صورة "القارعة،ما القارعة؟وما أدراك ما القارعة؟ في هذه العبارات:"ولكن الألفية!وما أدراك ما الألفية!وحسبك أن سيدنا لا يحفظ منها حرفا"[20]،وفي موضع أخر عن المشائخ وأصحاب الطرق: "وشيخ الطريق،وما شيوخ الطريق!كانوا كثيرين منبثين في أقطار الأرض"[21]،كذلك في مكان أخر هو يتحدث عن نفسه بعد أن تخرج في جامعة القاهرة وتأهب لأن يسافر إلى فرنسا ولكن المشكلة المالية من قبل الجامعة حالت بينه وبين السفر،وكان في ذلك الوقت عيلا على أبيه،فبدأ يبحث عن وظيفة حتى يكسب قوته،فيصف هذه الحال فيقول:"أ كان هذا وسيلة إلى هذه الحياة الفارغة التي يحياها وإلى أن يصبح آخر الأمر كلا على أسرته أينما توجهه لا يأت بخير"[22]، وفي موضع يقول:"فإذا رأوا أنه قد أصبح قليل الغناء لجأوا إلى

---

[17] الأيام،الجزء الثالث،طه حسين،مكتبة إحسان لكناؤ،2010م،رقم الصفحة:40

[18] الأيام،الجزء الثالث،طه حسين،مكتبة إحسان لكناؤ،2010م،رقم الصفحة:78

[19] الأيام،الجزء الثالث،طه حسين،مكتبة إحسان لكناؤ،2010م،رقم الصفحة:113

[20] الأيام،الجزء الأول،طه حسين،مكتبة إحسان لكناؤ،2010م،رقم الصفحة:71

[21] الأيام،الجزء الأول،طه حسين،مكتبة إحسان لكناؤ،2010م،رقم الصفحة:87

[22] الأيام،الجزء الثالث،طه حسين،مكتبة إحسان لكناؤ،2010م،رقم الصفحة:72

الكيد،ثم إلى الاضطهاد،ثم إلى إعلان الحرب التي لا تبقي ولا تذر"[23] بجانب هذه العبارات الشائعة وجدنا كثيرا هو يقول: "فيرهقه من أمره عسرا" ومثل هذا التركيب كثير جدا.

ومن أكبر مميزات أسلوب طه حسين وأبرزها خصوصية أنه يقدم دائما رأيه في أسلوب حلو عذب،فيه كلمات سهلة وألفاظ عامة وتراكيب هينة،لا غموض ولا تعقيدات ولا التواء،يسوغ كل منا كتاباته بدون مشقة ومشكلة،لم يعرف الأدب العربي مثل أسلوبه من قبل؛تصل سهولة أسلوبه إلى حد ممتنع مثل الشاعر الجاهلي الكبير عمرو بن كلثوم،لا فرق بينه وبين هذا الشاعر إلا أن الثاني ينظم الكلام ويقرض الشعر،يتحذر من حوشي الكلام وغرائب الألفاظ دائما،وهذه الطريقة عامة في كل مكان وفي كل كتاب؛سواء كان كتابا نقديا أو كتابا تأريخيا،أو قصصيا وروائيا،أو سيرة ذاتية،هو أسلوب حديث استفاد وتأثر كثيرا من الآداب الأوربية والآداب العالمية:آداب يونانية ولاتينية، التي تؤمن باليسرة في الأسلوب والهينة في الكلام،ويحث أصحابها على اتخاذه واحتضانه،وكان أسلافنا أيضا أولي الأساليب السهلة والعذبة،وأكبر مثال لها القرآن الكريم والحديث النبوي ﷺ وخطبات الخلفاء الكرام_ رضي الله عنهم_ وكتابات ابن المقفع وغيرهم،ولم يتدخل هذا المرض في أحشاء الأدب العربي إلا بعد أن تروجت فيه تقاليد التصنع والتزوير وتزيين العبارات وتجميلها بكل لفظ ممكن وتركيب ممكن،سواء كان يكلف الكاتب عناء كبيرا ويقتضي منه مشقة طويلة،كما نألف عند قليل من الأولين وكثير من الآخرين؛عند ابن العميد المتوفى سنة 360هـ وعند أصحاب المقامات:بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة 398هـ والحريري المتوفى سنة 516هـ والقاضي الفاضل المتوفى سنة 695هـ. وهذا الأسلوب لطه حسين إن يدل على شيئ فهو يدل على أن صاحبه كتب لعامة الناس أيضا كما هو لأعلام العلم والدين،ونجد أن بعض الكتاب لهم أسلوب لا يستطيع أن يحله أهل العلم إلا بعد المراجعة والتفكير وإعماق النظر الدقيق فضلا أن يقرأه عامة الناس ويفهمه،أما طه

---

[23] في الأدب الجاهلي،طه حسين ،الطبعة الثامنة عشرة،دار المعارف بمصر،2005م،رقم الصفحة:73

حسين فهو لا يترك النصوص غامضة ومعقدة، بل يوضحها أتم توضيح وأكمله إن كان فيها الغموض،فيطيل فيها الكلام ويسهب فيها البيان،ويكثر استخدام المترادفات والمتشابهات من الألفاظ والتعبيرات،والمتبائنات والمتانقضات أيضا حتى يفهم القارئ الكلام أحسن فهم وأكمله.

وفيما يلي من السطور نموذجة لكلامه،هو يقول عن بشار بن برد المتوفى سنة 167هـ:"وقد كان من المعقول أن تكون هذه الآفة التي ابتلى الله بها بشارا مصدرا لحب الناس إياه وعطفهم عليه،ورفقهم به،لو أن بشارا عرف كيف يتلقى هذه الآفة،وكيف يحتملها،وكيف يعرف مكانته منها،ولكن من البائسين من يجعل الله البؤس مصدر النقمة منهم،والسخط عليهم؛لأنهم يسيؤن احتمال هذا البؤس،أو يضعونه في غير موضعه،فكم سخط على معدم،وكان من حقه أن يرحمه؛لأنه لم يعرف كيف يكون معدما أو فقيرا،كذلك أصاب الله بشارا بهذه الآفة"[24]،ونستطيع خلال هذه العبارات أن نرى ما فيها من يسرة وما فيها من مترادفات،بدون أن تكون فيها أي كلمة غريبة يتعذر على القارئ فهمها.وهنا نموذج آخر لكلامه من "في الأدب الجاهلي" هو يقول عن حرية الفكر والرأي في الأدب:"وأنا أحب ألا تضجر ولا تسأم؛فلن أحدثك عن حرية الرأي كما تعود أصحاب القانون والدستور والصحف أن يحدثوك عنها.وأكبر ظني أنك تعلم من هذا الحديث مثل ما أعلم،وأنك تقدس الحرية كما أقدسها وتراها شرطا أساسيا للحياة الصالحة كالحرية السياسية وكالحرية الاجتماعية.إنما أريد أن أحدثك عن هذه الحرية التي يطمع فيها كل علم ناشئ ليستطيع أن يقوي وينمو ويأخذ بحظه من الحياة،هذه الحرية التي تمكنه من أن ينظر إلى نفسه كأنه كائن موجود ووحدة مستقلة ليس مدينا بحياته لعلوم أخرى أو فنون أخرى أو عوامل اجتماعية وسياسية ودينية أخرى"[25] في هذه العبارة النموذجية نجد كيف يختلف طه حسين من إيجاز إلى إطناب ومن القصير إلى الطويل،ويورد الكلام نظرا إلى القارئ،ويورد

---

[24] حديث الأربعاء،الجزء الثاني،طه حسين،الطبعة الخامسة عشرة ،1998م،دار المعارف بمصر،رقم الصفحة:188

[25] في الأدب الجاهلي،طه حسين ،الطبعة الثامنة عشرة،دار المعارف بمصر،2005م،رقم الصفحة:56

الجمل المضارعة والمشاكلة للتوضيح والإفصاح،وهذا يشهد بأنه كان صاحب الجدة والحداثة في الأسلوب والكتابة.

آثاره الأدبية والعلمية

قد قام كاتبنا بالكتابة حول موضاعات متعددة الجوانب ومختلفة النواحي، فما من مجال الأدب و العلم إلا و قد جرى فيه قلمه جريان الفرس العربي في ميدان الحرب، وما من موضوع إلا كتب عنه وما من باب إلا طرقه و ولجه،وبجانب تأليفاته الشخصية هو اشترك مع الأخرين أيضا في التأليفات،كما ترجم الكتب العديدة من اللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية إلى العربية،وشرح التأليفات الأخرى وعلق عليهاحسب الضرورة،ثم قرض الأشعار، وظهرت أعماله الفنية في صورة الأفلام.

فأول كتاب ظهر على يديه هو"ذكرى أبي العلاء"،هذا الكتاب في الحقيقة كان موضوع الدكتوراة في الجامعة المصرية عام 1914 الميلادي،تحدث عن حياة الفيلسوف العربي أبي العلاء المعري المتوفى سنة 449ه وفلسفته وفكرته،مستعينا من أشعاره وصور أدق تصوير لزمانه وبيئته وأنه كيف أثر على ما له من معتقدات وآراء خاصة غير ما كان للمسلين من أفكار وأخيلة."حديث الأربعاء": نشر هذا الكتاب في ثلثة أجزاء عام 1925 الميلادي تناول فيه حياة من جماعة شعراء المجون و الدعابة واللهو من العصر الأموي و العصر العباسي والعصر الراهن."في الشعر الجاهلي": طبع هذا الكتاب عام 1926 الميلادي،هو من أشهر كتب طه حسين،وأكثرها دفعا إلى إثارة الضجة والهزة في قصر القدامة والتحفظ، فيه ادعى بأن معظم أشعار العصر الجاهلي منحولة،اختلقها المسلمون ثم انتسبوها إلى الجاهلية،كي يفتخروا بها على الأمم التي كان لهم حظ موفور من الأثار العلمية والأدبية المتوارثة من الأسلاف مثل الفرس و الروم،ولم يكن هدوء حتى حذفت منه الجمل المعترضة وأضيفت إليه بعض الصفحات

الجديدة وغير عنوان الكتاب وسمي "في الأدب الجاهلي" عام 1927 الميلادي."حافظ و شوقي": يدور هذا الكتاب حول الشاعرين الكبيرين في العصر الحديث من مصر: "أحمد شوقي" المتوفى سنة 1932 الميلادي وشاعر النيل "حافظ إبراهيم" المتوفى سنة 1904 الميلادي،هو عبر عن رأيه عما قرضوه من الأشعار وما فيها من القدامة والتجدد،طبع هذا الكتاب عام 1933 الميلادي."الحياة الأدبية في جزيرة العرب": سمي هذا الكتاب "ألوان" أيضا،تحدث فيه عن مختلف النواحي و الأطراف للآداب العالمية و العربية في متعدد العصور بين ازدهار وانحطاط وما لها من أثر في عقل المرء وفنه،صدر الكتاب عام 1935 الميلادي."من حديث الشعر والنثر":هذا الكتاب مجموعة لمحاضرات طه حسين التي ألقاها في مختلف الجامعات ومتعدد الحفلات الأدبية عن الأدب العربي القديم شعرا و نثرا وما له من قيمة وأهمية عند أهل دراية بالعلم و الأدب في العام كله، طبع هذا الكتاب عام 1936 الميلادي."مع المتنبي": كتب هذا الكتاب عام 1937 الميلادي،وشهد العالم الأدبي في العرب هذاالعام احتفال خاص بمناسبة مضي ألف عام للشاعر الكبير أحمد ابن الحسين المتنبي المتوفى عام 354 من الهجرة،تناول الكاتب حياته وأشعاره بالدراسة العميقه المنصرفة عن ماألف به العرب."فصول في الأدب والنقد":طبع هذاالكتاب عام 1945 الميلادي،هو مجموعة من الفصول عن الأدب والنقد في العصر الحديث، وقد جلب كثيرا اهتمام الشبان والجيل الجديد.بين بين:هذا الكتاب يشتمل على مقالات طه حسين نشرت في الصحف المختلفة حول موضوعات متعددة،فهو تتحدث عن السياسة والحكومة أحيانا وعن العلم والأدب آخر،صدر عام 1952 الميلادي."خصام ونقد":ظهر هذاالكتاب عام 1955 الميلادي،نجد فيه الكاتب يشكو من أهل العلم والأدب ويلعن على الحياة الأدبية القاحلة والعقيمة التي لا تبدع ولا تخترع كتبا قيمة ولا آراء جديدة على الرغم ما توجد لها من التسهيلات وأسباب الراحة،وتناول ما يعد من أشهر موضوعات الأدب تعقدا واستغلاقا في العصر الراهن مثل قضية الفصحى والعامة وعلاقة الأدب بالثورة وبالعكس منها."من أدبنا المعاصر":قد برز هذا الكتاب على أفق النقد والأدب عام 1958 الميلادي،اهتم فيه بنقد ما كتبه المعاصرون من القصص،فبين ما يوجد

فيها الجودة وما فيها من الاختلال حسب الأصول الفنية،كذلك هو تكلم عن بعض المشاكل الأدبية مثل التجديد في الشعر والواقعية والرومانسية في الأدب العربي."أحاديث":هذا الكتاب كما يظهر من اسمه يركز على موضوعات عديدة تتعلق بالحياة مثل الأدب و الاجتماع والثقافة وما فيها من المشاكل و الصعوبات،طبع عام 1959 الميلادي.

هذه كانت من أشهر الأعمال في ميدان الأدب و النقد لطه حسين،والآن نصرف اهتمامنا إلى ما كتبه في القصص والروايات، وندرس هذا الجانب الأدبي لحياته العلمية، فعدد إنتاجاته كثيرة،وقد نالت القبول والتداول من عامة الناس ورجال العلم والأدب سواء،وفيما يلي من السطور تسليط الضوء على كتبه وإحاطتها بالتعارف البسيط.

"الأيام":في الحقيقة هذا الكتاب سيرة ذاتية لطه حسين يحتوي على ثلثة أجزاء إلا أن أسلوب الكتابة فيه يختلف عما يألفه الناس في السيرة الذاتية، فهو أشبه بالرواية منه إلى السيرة الذاتية،ظهر في صورة كتاب عام 1929 الميلادي ومنذ ذلك اليوم نشر عديد مرات وترجم إلى كثير من اللغات العالمية الحية،يتحدث الأول منه عن الطفولة والثاني عن انتقاله من القرية إلى القاهرة و الأزهر،والثالث عن كونه طالبا للجامعة المصرية ثم السفر إلى فرنسا والعودة منها."دعاء الكروان":هذه الرواية ترسم حياة فتاة بدوية دفعها شاب من مدينة إلى ارتكاب جريمة جاءت بالعار للأسرة ،فنحرت نفسها وقتلت،وكان أبو البنت اقترف نفس الجناية ثم هجر الأسرة وغاب ولم تبق في الأسرة إلا الأم وابنتين،وبعد أيام إحداها أيضا وقعت في نفس الإثم،طبع هذه الرواية عام 1942 الميلادي."الأديب":يقال إن هذه الرواية جزء رابع للأيام التي تصور حياة طه حسين،جاء هذا الكتاب عام 1935 الميلادي."القصر المسحور":كتب طه حسين هذا الكتاب بالإسهام مع الأستاذ توفيق الحكيم المتوفى سنة 1989 الميلادي،وهذا الكتاب في الواقع نتيجة للرسائل التي تمت مبادلتها بين الكاتبين،فيه شهر زاد وقصرها في بغداد،ولقاءها مع الكاتبين."الحب الضائع":هو مجموعة من القصص التي تتحدث عن الحب، وما فيه من ألم

ولذة لمن نجح أو فشل فيه،صدرت هذه المجموعة عام 1938 الميلادي."أحلام شهر زاد":كما يتجلى من اسم الكتاب هذه الرواية مثل رواية ألف ليلة وليلة،وفيه شهر يار البطل وعقيلته شهر زاد البطلة،تقص على زوجها قصة الملك الصالح وسلوكه مع الرعية،طبع هذا الكتاب عام 1943 الميلادي."شجرة البؤس":هذه الرواية الاجتماعية تشكل صورة المجتمع المصري وما فيه من القبائح والسيئات،في أسر متدينة يحكمها الآباء والكبار فقط،لا توجد الحرية للفتيان والفتيات فحسب مرضاتهم هم يزوجونهم،طبع هذا الكتاب عام 1944 الميلادي."المعذبون في الأرض":هذا الكتاب يترجم عن أحوال الناس الذين يعيشون في الفقر والهم بدون أن يحفل الأغنياء بمشقاتهم ومصائبهم، وهذا الكتاب نموذجة لفكرة كاتب الشيوعية صدر عام 1949 الميلادي،وكانت مصر في هذه السنة تتقدم إلى الثورة الشهيرة ضد الحكومة المضطهدة.

المجال الثالث المهم الذي ضرب فيه طه حسين بسهام ،وأتى بجدة هو التأريخ الإسلامي،فالآن نطالعه كاتبا إسلاميا،أو مؤرخا إسلاميا،أعماله في هذا الصدد تحيط بباكورة العصر الإسلامي فقط ،فهو كتب عن سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم،وزمانه و ثورته، وعن حياة الخلفاء الأربعة وما جاءوا به من الفتح العظيم ،وما ظهر من الفتن في عصورهم وأنه كيف ابتلي المسلمون فيها،وفيما يلي من السطور استعراض وجيز لمآثره في هذا الميدان.

"على هامش السيرة": له ثلثة أجزاء،وهذا أول كتاب له في التأريخ الإسلامي،هو يتحدث عن حياة رسول الله والزمن قبل مجيئه وقصص تتعلق ببشرى قدومه على ألسنة الرهبان و القسيسين ،ومن كانوا معه في أول الأمر مثل أبوبكر الصديق وعمر وسليمان،وحضارة أرض العرب وما جاورها من بلاد فرس والروم ومصر،والثورة الإسلامية وأثرها على العرب.الفتنة الكبرى:له جزآن،يعنى بالفتنة هنا ما حدث في عصر الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه،والخليفة الرابع علي كرم الله وجهه،من اضطرابات وثورات،وهذه الفتن حسب الكاتب كانت مصدر افتراق الأمة الإسلامية لم يكتب لها فيما بعد الوئام،طبع الكتاب عام 1947 الميلادي."الشيخان":هذا الكتاب

يصور لنا صور الخليفة الأول أبوبكر الصديق والخليفة الثاني عمر فاروق رضي الله عنهما،ويبين ما كانت حياتهما قبل الإسلام و بعده،وتضحياتهما وابتلاؤهما بلاء حسنا كلما احتاج المسلمون إليها،قد تم طبع هذا الكتاب عام 1960 الميلادي."مرآة الإسلام":حاول الكاتب في هذا الكتاب تقديم صورة سمحة للإسلام وما فيه الوسطية والعدالة لكل أمر،ووضح أن القرأن معجز أعجز العرب من أن يأتوا بمثله،ولكن لا يمكن فهمه إلا بمساعدة الحديث النبوي ،ظهر عام 1959 الميلادي."الوعدالحق":يرسم هذا الكتاب بعض الشخصيات التي تقدمت في اعتناق الإسلام وكانوا من أقل الناس مالا في مكة وأغربهم بيتا،وأوضعهم أنسابا مثل صهيب الرومي وعمار بن يسار وبلال بن رباح الحبشي،وبعد زمان شاء الله أن صاروا من أكرمهم موضعا وأعلاهم مكانا.

والآن نتحول إلى المجال المهم لكتابة طه حسين،وهو الإصلاح والتفكير الاجتماعي،نجد في هذا الموضوع كثيرا من كتبه،جاهد فيها أحسن المجاهدة تقويم ما يقع على المجتمع من الاعوجاج وتهذيب الفكرة والثقافة الاجتماعية وتجديد تعليمه وحضارته وصياغته في قالب حديث،جلاء الغبار عن وجوه الحقيقة،وسنلقي ضوء على أعماله بهذا الصدد."ذكرى أبي العلاء المعري":ونفس الكتاب طبع مرة أخرى باسم تجديد ذكرى أبي العلاء المعري،وفي عام1935 الميلادي ظهر له "مع أبي العلاء في سجنه" وفي هذه الكتب جميعا مطالعة فلسفة المعري مطالعة عميقة في ضوء أشعاره،ودراسة أسباب تشاؤمه وقنوطه ثم إعراضه عن أهل الدنيا وانزواؤه عما فيها من ملذات ومسليات، وارتيابه في وجود الملائكة والأرواح."مستقبل الثقافة في مصر":صدر هذا الكتاب عام 1938 الميلادي،فيه بين طه حسين خطط ومشروعات لتطور الثقافة المصرية العربية،وهذا يحتاج إلى أخذ أسباب الرقي من أوربا،كما يكون تعليم الدين جزءلا يتجزى له.

والآن نتوجه إلى بعض الكتب المعروفة التي قام بترجمتها طه حسين إلى اللغة العربية،و هي:"أندروماك":مسرحية كتبها كاتب فرنسي جان راسين،ترجمها طه حسين إلى العربية عام 1935الميلادي."روح التربية":لجوستاف لوبون،ترجمها طه حسين عام1923 الميلادي. "الواجب":لجول سيمون، هو كاتب فرنسي شهير،ترجمها إلى اللغة العربية طه حسين بالاشتراك مع محمود رمضان.

بعض أعمال طه حسين القصصية و الروائية تحولت إلى الفيلم و السينيما،ونشرت عبر التلفياز و الإذاعة أيضا،وقد أخرج فيلم "دعاء الكروان"و"الحب الضائع"و "ظهور الإسلام"و الفيلم النهائي أخذ من كتابه "الوعد الحق" كما نشر كتاب "الأيام"عبر الإ ذاعة المصرية بعد أن سجل صوت الكاتب.

وقرض طه حسين أشعارا أيضا كما جمع بعضها الأستاذ سامي الكيالي في كتاب "مع طه حسين"،وأشعاره تحيط بجميع الموضوعات المعروفة مثل المدح والهجاء والغزل والرثاء والتهنئة كما له أشعار حرة،هو يهجو عبدالرحمن شكري الذي سخر من آراء طه حسين عن الأشعار المعاصرة:

قل لشكري فقد غلا و تمادى بعض ما أنت فيه يشفي الفؤادا

بعض هذا فأنت في الشعر و النثر أديب لا يعجز النقادا

لو تفهمت قولنا لم يكلف ك هوى نقدنا الضنى و السهادا

و له قصيدة شهيرة جدا على البحر الكامل عن الشباب المصري و الأوضاع المصرية وقت الاحتلال البريطاني على مصر هو يقول:

كن أنت بعد أخيك خير هلال   وأضئ لمصر سبيل الاستقلال

وابسم بها بعد العبوس فربما   صنع ابتسامك بالرجاء البالي

كن أنت ميمون الطالع مرسلا   للنيل بالإسعاد و الإقبال

أشرق و حدث مصر عن آمالها   ما ذا صنعت بهذه الآمال

أمصدق فيك الظنون و ناظر   للنيل نظرة مانح و صال.

الفصل الثاني

الدكتور طه حسين كما يراه رجال الأدب والنقد

نجد عددا لا بأس به من رجال الأدب والنقد الذين قدموا آراءهم وأخيلتهم مؤيدة مرة و مخالفة أخرى عن أفكار طه حسين،كما توجد فهارس طويلة للذين تناولوا شخصيته بالتقدير والإشادة لأجل الحداثة التي جاءت بها في الأدب والثقافة،وهو في الحقيقة من بين رجال الذين كتبت عنهم كثيرا في العصر الحديث ونوقش عن شخصيته من كل جانب من جوانب الحياة ومن كل طرف من أطراف العلم،وفي السطور التالية نقدم بعض الأعلام المشهورين فقط في ميدان الأدب واللغة وخواطرهم عنه.

يقول محمود تيمور: "أستاذنا طه حسين تتبلور فيه أزكى نفحات النهضة العربية الحديثة،من دعوات وهتفات في الوطنية و السياسة،و في العلم والدين،في الثقافة والأدب،فهو خلاصة مركزة لأعلام تلك النهضة:مصطفى كامل،و حمد عبده،وقاسم أمين،وسعد زغلول،ولطفي السيد وأشباههم القليلين،أولئك الذين أوقدوا نار الثورة،وأضاءوا منار الحرية،وحملوا لواء التقدم والتطور، وهو بذلك أعرف المعارف بين الشخصيات البارزة في عصرنا الحاضر"[26].ويقول عباس محمود العقاد المتوفى سنة 1964م عن أسلوبه وكتابته ونقده وطريقة البحث:فالدكتور صحيح الأصول في النقد،وهو رجل جريء العقل قويه،مفطور على المناجزة والتحدي،يستفيد مما يقتنع بصحته،وما يعينه على التحدي والتفرد فلا يحجم عن اتخاذه،ولهذا تغير أسلوبه الكتابي بعد دراسته للأساليب الأوربية،فاتخذ له نمطا يوافق علمه بالعربية الفصيحة،وعلمه بتقسيم المقاطع و الفواصل في الكلام الأوربي،كما يتكلمه من يجمع بين الحديث والكتابة في

---

[26] طه حسين كما يعرفه كتاب عصره،مطابع مؤسسة دارالهلال القاهرة مصر،رقم الصفحة:5

وقت واحد،فهو يتحدث ولا ينسى أنه يكتب،ويكتب ولا ينسى أنه يتحدث،وأسلوبه الذي اختاره أوفق الأساليب لذلك جميعا وأوله من نوعه في اللغة العربية،وليس فيه محاكاة لأسلوب آخر في اللغة الأوربية[27].

ويقول أحمد حسن الزيات عن أشعاره التي قرضها ولكن معظمها ضاعت،وذهبت ضحية الغفلة والإهمال:"فأخذنا نعمل موقنين أن الفتى _يعني طه حسين_ لن يبزنا في نثر الكلام ونظمه،وإن بزنا في حفظه وفهمه،ولكن ماذا تقولون وقد غدا علي الشيخ بقصيدة حماسية الموضوع،جاهلية الأسلوب،تمثل ما انطبع في خاطره من صور الشعر القديم...سمعنا تلك القصيدة فازدرينا أنفسنا،وشعرنا بالضعف أمام تلك القوة النادرة،فأحللناه منا محل الإنسان من العين،والسواد من القلب،ومضينا على إثره نخوض بحور الشعر،فتارة نطفو،وتارة نرسب وهو في السباحة ماهر،وبالطريق خبير"[28]،ويقول عبد العزيز جاويش عن قدرة طه حسين على الشعر:"لقد غاب حافظ عن احتفالنا هذا العام،ولكن إذا كان حافظ قد غاب فإن شاعرا كبيرا يتقدم إليكم اليوم،وهو الشيخ طه حسين الكاتب القدير الذي تعرفونه بكثرة كتاباته ومقالته"[29]،وعندما طبع "الشعر الجاهلي" وأثيرت الضجة والاضطراب عن محتوياته من قبل الأزهريين والإخوان المسلمين خاصة،واتهم في الدين،وكان عبد الحميد ذلك الوقت رئيسا للإخوان المسلمين،هو رفع صوته ضد الكاتب أكثر من أي أحد في البرلمان، فقام شاعر النيل حافظ إبراهيم المتوفى سنة 1932م بالدفاع عن طه حسين،وقرض شعرين في شأنه،هو يقول:

إن صح ما قالوا وما أرجفوا   وشنعوا زورا بدين العميد

---

[27] إقرأ، يناير،1968،عادل غضبان،دارالمعارف مصر رقم الصفحة:89

[28] الجريدة 26 ،5 ،1914 إقرأ، يناير،1968،عادل غضبان،دارالمعارف مصر رقم الصفحة:48

[29] إقرأ، يناير،1968،عادل غضبان،دارالمعارف مصر رقم الصفحة:50

فكفر طه عند ديانه   أحب من إيمان عبد الحميد[30]

ويقول عبد الرحمن صدقي:"عميد الأدب لقب ارتضى العربي في كل مكان أن يطلق في عصرنا الحاضر على واحد دون غيره من الأدباء والأعلام،هو الدكتور طه حسين،تسليما بأنه الحري بأن ينفرد به،لأنه ليس بين الأدباء أبناء عصره،من اجتمعت له في طويل السنين مقوماته و صفاته،فقد اجتمعت للدكتور طه حسين ثقافات عديدة لم يأخذها من الكتب وحدها،و لكنه عاشها"[31]!.

يقول الدكتور شوقي ضيف:"كان ظهور طه حسين حدثا مهما في مجال الدراسات الأدبية،فقد أخرجها من طور قديم إلى طور حديث تغيرت فيه هذه الدراسات تغيرا تاما،بحيث أصبحت لا تقل خصبا و لا امتاعا عن مثيلاتها في الآداب الغربية"[32]. ويقول أيضا في مكان آخر: "لعلي لا أبالغ إذا قلت إن كل الجهود الأدبية العلمية التي نهضت وتنهض بها جامعاتنا إنما هي ثمرة طبيعية ولأصول البحث الأدبي التي وطدها طه حسين بمحاضراته ومصنفاته ومقالاته والتي بثها في تلاميذه.ومضوا بدورهم يبثونها في تلاميذهم،مما يجعله بحق الرائد الموجه لنهضتنا العلمية في الدراسات الأدبية"[33].

ويقول أنور الجندي:"وبعد..فإن هذه الصورة التي حاولت أن أرسمها لهذه المرحلة من حياة طه حسين تعطي جذور فكره كله في تحوله،و تطوره،تعطي صورة الشاب القلق المتطلع إلى المجد والشهرة والبروز، الذي عرف طريقه إلى الصحافة والأدب وعوالم الفكر والجامعة والبحث، جريئا

---

30 نفس المصدر، رقم الصفحة:58

31 رقم الصفحة:8

32طه حسين كما يعرفه كتاب عصره،مطابع مؤسسة دارالهلال القاهرة مصر،رقم الصفحة :155

33 نفس المصدر،رقم الصفحة:162

يكون آراءه في أمور الحياة و المجتمع،و يتأرجح_على حد تصويره_بين المدرستين القائمتين في مصر إذ ذاك:مدرسة التعقيل والبرهان ومدرسة العواطف و الحماسة"[34].

ويقول المستشرق فرانسشيسكو جابريللي وهو أستاذ اللغة العربية بجامعة روما وعضو مراسل في مجمع اللغة العربية وعضو أكاديمية لينشسي:"يعتبر نشاط طه حسين في حقلي النقد والأدب الجانب الرئيسي من إنتاجه العظيم المتعدد النواحي،وإذا كانت كتاباته الثقافة والسياسية ومقالاته عن تأريخ الإسلام القديم وإنتاجه الفني الأصيل تشكل جوانب أخرى من جوانب نشاطه المتعدد الأشكال،فإن النقد الأدبي هو الذي استنفد أولى طاقاته وأحداثها والذي أعطى شكلا ومادة لأشهر مؤلفاته التي كانت محل نقاش الكثيرين والتي كانت سببا في ذيوع شهرته في داخل مصر والعالم العربي و خارجهما"[35].

ويقول الدكتور محمد مندور في رسالة أرسلها إلى طه حسين:"لئن قال رجال نحن تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده كما قالوا قديما نحن تلاميذ سقراط أو أرسطو، فنحن اليوم أعلى من الجميع صوتا و أقوى روحا نصيح في كل مكان بأنا تلاميذك الخادمون، الحق معك الساعون إلى تجديد الأدب ومن جدد الأدب فقد جدد مقوما من أعظم مقومات الحياة.نعم نحن تلاميذ الدكتور طه نفتخر بهذه التلمذة ونباهل من ينكر علينا هذا الفخر،دوننا ودونهم معترك الحياة فليلقوا بأسهمهم وها نحن نلقي بأسهمنا ثم لينظروا أينا يحكم الرماية".[36]

---

[34] نقس المصدر،رقم الصفحة:61

[35] نفس المصدر،رقم الصفحة:163

[36]طه حسين و معاصروه، فرج نبيل،دار الهلال، مصر ،1994م رقم الصفحة:85

ويقول يوسف السباعي المتوفى 1978 الميلادي:"سيدي العميد!لقد كنت بالنسبة لجيلنا كله رائدا من رواد الفكر،الذي يندر أن يجود بهم الزمان!"[37]،ويقول شكري فيصل عنه وعن أعماله القيمة والبحثية في الأدب والثقافة والتأريخ:"ظلت كتب الدكتور طه وآثاره ومؤلفاته مثار الدراسات الأدبية المعاصرة ومصدرها،وكانت كثرة من هذه الدراسات والرسائل والكتب في نطاق الجامعة أو قريبة منها متأثرة به أو مستوحاة منه،مؤيدة له أو معارضة لبعض اتجهاته. ولم يعرف تأريخ الأدب العربي هزة تشبه الثورة وحركة أقرب إلى التجديد كهذه الهزة التي فجرتها مباحث الدكتور وآراؤه؛على ما كان يخالطها من عنف حينا ومن جرأة حينا ومن تجاوز في بعض الأحايين.وأغلب الظن أن دهورا طويلة ستمضي قبل أن يستنفد الباحثون العرب مناحي البحث التي فتح الدكتور طه أبوابها أو مد آفاقها أو دعا إليها"[38].وقال محمد حسن الزيات في الصفحة الأولى لكتاب الأيام: "ومؤسسة الأهرام _مثل باقي مؤسسات العالم العربي الثقافية_ تقدر أكبر تقدير منزلة"طه حسين" في حياتنا العقلية والأدبية والاجتماعية والسياسية،وهي منزلة الرائد القائد والعالم العامل،ولكنها كذلك تعتز بطه حسين كاتبا من أبرز كتابها،اتخذ من صفحاتها منبرا عاليا لنشر أماليه،ولذلك فإن مؤسسة الأهرام إذ تنهض بنشر هذه الطبعة المميزة من كتاب"الأيام"في ذكرى مرور مئة عام وعام على مولد صاحبه؛إنها يؤدي واجب الوفاء لكاتبها الكبير،كما تساهم في تخليد ذكرى العميد الفقيد"[39]، وتقول الدكتورة سهير القلماوي عن طريقة التدريس لطه حسين،وأنه كيف يهيئ نفسه قبل استهلال التدريس وهي تلمذت عليه في جامعة القاهرة:"إن طه حسين وهو من هو علما ومعرفة لم يكن يدخل قاعة الدرس قبل أن يعد درسه.كم مرة درس عمر بن أبي ربيعة مثلا ولكنه في كل مرة كان يقرأ عمر بي أبي ربيعة من جديد.أنه لا يعتمد كأستاذ جامعي حق على علم الأمس في الأدب.أن الحياة تتجدد وتذوقنا

---

[37]الأصالة و المعاصرة في فكر د.طه حسين،لوسي يعقوب ،القاهرة الحديثة للطباعة،بهي الدين الخربوطلي 3 شارع الجد بالفجالة،1989 الميلادي،رقم الصفحة:201

[38] مقدمة تأريخ الأدب العربي لطه حسين،المجلد الأول،دار العلم للملايين،بيروت، لبنان،الطبعة الأولى،مارس،1970م رقم الصفحة:5

[39] الأيام لطه حسين ،الطبعة الأولى،مركز الأهرام للترجمة و النشر شارع الجلاء،القاهرة،1992م رقم الصفحة:3

للأدب يتجدد،ومعلوماتنا تزداد،ولزيادتها دخل كبير في تذوقنا الجديد،إن عادة طه حسين التي علمنا إياها،أن نجل الدرس وأن نحترم مقامه حياتنا،هي التي تجعلنا إلى اليوم لا ندخل قاعة الدرس قبل أن نعد درسنا إعدادا جديدا[40].

[40] طه حسين كما يعرفه كتاب عصره،مطابع مؤسسة دارالهلال القاهرة مصر،رقم الصفحة:37،38

الفصل الثالث

قيادة طه حسين في المجيئ بالحداثة في اللغة والثقافة العربية

إن اللغة و الثقافة العربية في العصر الحديث قد شهدتا كثيرا من الحداثة والجدة ما لم يسبق من قبل،وقد مثلت بلاد مصر وأبناؤها دورا بارزا في المجيئ بها،ويحدد تأريخ النهضة في الأدب العربي بالعقد الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي –كما تحدثنا من قبل_،بينما أخذت الحداثة سبيلها إلى اللغة و الثقافة العربية فيما بعد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي،وهنا يبرز أهم سؤال أنه لما ذا نجد فجوة حوالي نصف قرن بين النهضة والحداثة في اللغة والثقافة العربية،وفراغ طويل يستغرق خمسين سنة بينهما؟وما منعهما من أن تردا معا وأن تأتيا مرة واحدة؟أو على الأقل يتقلص بينهما الفراغ وتتخف بينهما الفترة؟فنقول إن الفراغ يحدث بين النهضة والحداثة عامة في كل لغة وثقافة،وهذا ينحصر على مدى تأثير النهضة في الأدب واللغة،فإذا كان التأثير عميقا وعظيما،جاءت الحداثة سريعا،وإذا كان سطحيا وقليلا،بطأت وتأخرت،وفي الأدب والثقافة العربية جاءت النهضة بعد مدة طويلة من الانحطاط والانهيار،بعد سقوط بغداد عام 656هـ الموافق 1258م إلى عام 1799م،لأجل ذلك استغرقتا وقتا طويلا في إثباتها واستقرارها،فحاول الناس أول ما حاولوا أن يقللوا الفترة بين القديم والجديد،ثم أعادوا الحياة إلى ما كان من أحسن الجزء من الأدب القديم،ووزنوه في ميزان جديد،وأخذوه بالانتقاد والمحاسبة،وكذلك قرأوا اللغات والثقافات الحديثة المتطورة،وهذه العمليات جميعا تتطلب الوقت الطويل والزمان المديد،فلما استقرت النهضة استقرارا كاملا،بدأ الناس يحاولون في المجيئ بالحداثة،لأجل ذلك نجد الفراغ الطويل والفترة البعيدة بين النهضة والحداثة في الأدب العربي.

إن عملية الحداثة ليست ميسورة ولاسهلة،إنها تقتضي الاعتزام والاستمرار وتطلب الشجاعة والجرأة من صاحبها وتحتاج إلى الصبر والكدح من أهلها وترجو الجلادة والرزانة منه،لأنه يواجه

طوفان الخلاف والمشاكل وعراقيل الإنكار والعداء من جانب ناصري القدامة ومؤيدي الاحتفاظ،فهي تتم على أيدي من كان على إلمام تام بغزارة العلوم والفنون بجانب حظ عظيم من مواهب البسالة والجرأة،لا تكتمل على أيدي من كان أعطي من العلوم والفنون أكثرها فقط،أو من وهب نعمة الصبر والاعتزام والاستمرار فقط،بل من كانت شخصيته مزيجة من كلتا الصفتين،ومن كانت شخصيته ملتقاة كلتا العادتين.وكانت شخصية طه حسين مجموعة من جميع هذه الصفات التي لازمة لإتيان الحداثة،وهي توجد فيه في أكمل صورة وأقوى وجه؛بجانب وفرة العلوم واللغات والثقافات المختلفة،خلق صابرا ومجلدا،وفطر على الكدح والمعاناة،لا يتحرك من موقفه،ولا يزلزل عن كلامه تحت ضغط وصيحة إذا رآه صوابا وحقا.

ومما يخلق للذكر هنا أن الجدة من الأعمال التي تقع بالتدريج والأناة،ولا علاقة لها بالسرعة والعجلة،هي لا تحدث ولا تنضج عند فرد واحد دون غيره في زمان قليل،بل هي ثمرة لمحاولات مخلصة من جماعات وأفراد في أزمنة ممتدة على السنوات والعقود،هي تأخذ وقتا طويلا في البلوغ إلى عمر الشباب،وتمر مثل ما يمر الإنسان بمراحل الولادة والنشأة و المراهقة والشباب والكهولة ثم الموت،وإنها في اللغة والثقافة العربية ولدت وتربت عند أمثال قاسم أمين المتوفى 1908م صاحب "المرأة الجديدة"،ومحمد عبده المتوفى سنة 1905م صاحب "الإسلام والنصرانية" ولطفي السيد المتوفى 1963م صاحب "الجريدة"،ثم شبت عند طه حسين وتلقت نضراتها وجمالها عنده،هو الذي ناصب لوجوده الحرب من أسرته وأساتذة قريته وجامع الأزهر وزملائه،ثم من الحكومة وأهل السياسة،وخاض في هذه المعركة منذ نعومة أظفاره إلى أن أصابته الشيخوخة والموت.بعد هذا التمهيد الصغير نحن سنتحول إلى استعراض أسباب جعلته قائدا للحداثة في اللغة والثقافة العربية ودواع صار بها رائدا لها،وأبرز وأكبر من الآخرين في هذا المجال.

كانت حياة طه حسين مليئة بالمخاصمة والنزاع،وحافلة بالمناقضة والمعاركة،هو بدأ المناقضة بنفسه قبل أن يخوض فيها مع غيره،هو أخذ نفسه بالشدة والعنف بطريقة لم يأخذها أحد من معاصريه،لأنه سرعان ما قدر أنه مختلف من بين سائر أخوانه،فأحب الوحدة والانعزال على المجالسة والمقابلة،واتخذ التحذر والحيطة بشدة قبل أن يشارك أسرته على مائدة الطعام،ومنع نفسه من ألوان الألعاب التي يشغف بها الأطفال في الطفولة،وحرمها من أسباب المتعة واللهو.هو كان يشعر بمركب النقص إذا سخر منه الإخوان في القرية وهزأ منه الأساتذة والزملاء في الأزهر.قلما نجد مثله من كان دائما في المعركة ودائبا في الجهاد،ومن رفع صوته ضد الاضطهاد الاجتماعي بمؤاخذة نفسه،ومحاسبتها منذ البداية،ولكن لم يستمع إليه أحد ولم ينصت إليه شخص،و في إمكانيتنا نحن أن نرى شدته على نفسه من هذه الحادثة التي وقعت في الطفولة. مرة لما فشل أن يسمع أباه بعض السور من القرآن،وعجز عن أن يذكرها، ذهب إلى حجرة من البيت وهجم على نفسه بآلة حديدية،هو يقول في كتابه "الأيام":"ومضى صاحبنا حتى وصل إلى الكرار وانعطف إلى الزاوية التي فيها القرمة،وأهوى به إلى قفاه ضربا!ثم صاح،وسقط الساطور من يديه،وأسرعت أمه إليه،وكانت قريبة منه لم تحفل به حينما مر بها،فإذا هو واقف يضطرب،والدم يسيل من قفاه،والساطور ملقى إلى جانبه"[41]،ولم تكن هذه الحادثة تافهة،ولكن خطيرة ومهمة،تتكهن أن الصبي سيكون وحيدا بين معاصريه. هو كان مختلفا من الناس في الصورة ظاهرا وفي المظهر خارجا فأراد أن يكون منفردا بينهم في الصورة باطنا، وأن يكون وحيدا بنيهم داخلا،ونجد آثار الحداثة والتمرد على التقاليد القديمة في أفكاره منذ باكورة أيامه،عندما دخل الأزهر سنة 1902م،فلما رجع إلى بيته،وجد أن الناس يدعون الله ويتخذون أنبياء الله وأولياءه وسيلة إليه،ويكثرون قراءة "دلائل الخيرات"وهو مجموع من السور المنتخبة من القرآن الكريم والأدعية المأثورة،وكان ممن يقرأونه أبوه أيضا،فرد عليه وعلى غيرهم أشد ترديد بدون أن يبالي بامتعاض أحد أو عتاب،وقال:"إن قراءة الدلائل عبث لا غناء فيه"،ثم

---

[41] الأيام (الجزء الأول) لطه حسين،الطبعة الأولى عام 1974م دار الكتاب اللبناني،بيروت،رقم الصفحة:59

لما زجره أبوه،ونهره،فأجاب:"وتعلمت في الأزهر أن كثيرا مما تقرأونه في هذاالكتاب حرام لا يضر ولاينفع؛فما ينبغي أن يتوسل إنسان بالأنبياء ولا بالأولياء،وما ينبغي أن يكون بين الله وبين الناس واسطة،وإنما هذا لون من الوثنية"[42].قد وقعت مثل هذه الحادثة كثيرا في طفولته؛مع شيخ القرية وقاضيها وعلمائها.ويستشهد بها أنه خرج ضد العادات منذ أول أيامه،وهذه الميزة لا توجد عند غيره من الكتاب وأهل العلم والفن،كل لحظة من حياته العلمية والبحثية حافلة بالجدال والنقاش،وكل عمل له مثير الضوضاء،ومسبب الانزعاج،وكل عمل له تمرد على القدامة وثورة على التقاليد والعادات المتوارثة ،لا نجد في تأريخ الأدب والثقافة العربية من الكتاب والأدباء والمفكرين من هز مبنى التحفظ والقدامة بمثل ماهو هز،أو بغى على الخرافة كما هو بغى،كذلك لم نجد منهم من كان عنده التحمس والنشاطة والإخلاص لإتيان الحداثة بمقدار ما عند طه حسين،إنه مميز بين معاصريه الذين بذلوا قصارى جهودهم وأقصاها في تقليل الفجوة بين القديم و الحديث.

ومن أهم مميزات دعوات الإصلاح والتقويم عند طه حسين إنه لم ينتظر فرصة مناسبة لتقديم آرائه وأفكاره حول عادة عامة وتقليد شائع بل كلما وجد الأخطاء والأغلاط، هو أعلن تمرده وخلافه مهما كانت الظروف,وخير مثال لهذا الجانب من إصلاحه ما حدث في جامع الأزهر؛كان جو الأزهر التعليمي في ذلك الوقت حالكا جدا حسب المناقشة العلمية والجدال الفني وإسداء الأسئلة إلى المعلمين في الفصول،وكان أمر التقديس والتعظيم متصلا بالعلم والبحث اتصالا وثيقا،لا يسأل المعلم احتراما لعلمه و تبجيلا لفنه،وهذا كان أخطر جدا لترقية الأفكار وتطوير الثقافة العلمية،وأقرب إلى الانجماد وأعون على التعطل،فقام طه حسين بتحطيم سلاسل التقليد الأعمى وكسر قيود الإذعان العلمي وقطع أغلال الانقياد البحثي،ولم يعبأ قط بسخط الأساتذة أو ضحك الزملاء،بل هو رفع صوته كلما حان الوقت و كلما رآى أن المعلمين

---

[42] الأيام ،الجزء الثاني، لطه حسين ،الطبعة الأولى،مركز الأهرام للترجمة و النشر شارع الجلاء،القاهرة،1992م رقم الصفحة:245

قد ضلوا عن سواء السبيل وجاروا عن طريق الحق و الصواب،ولأجل هذه الجرأة مرة أرادت الإدارة طرده من الأزهر،ولكنه قام ثابتا على موقفه،وبه ملتصقا،ومن تلك القصص الكثيرة قصته عن كفر الحجاج و إسلامه،كما هو يتحدث عنه في كتابه:"ومما كفرت الفقهاء به الحجاج قوله والناس يطوفون بقبر النبي ومنبره،إنما يطوفون برمة وأعواد،فأنكر صاحبنا أن يكون في كلام الحجاج ما يكفي لتكفيره،وقال لقد أساء الحجاج أدبه وتعبيره،ولكنه لم يكفر،وسمع بعض الطلاب ذلك فأنكروه،ثم تناقلوه"[43]،وبعد بث هذاالخبر قررت الإدارة على طرده،فذهب إلى عبد العزيز جاويش مدير"العلم" وفي أيديه مضمون طويل،تناول فيه الأزهر ومشايخه وطريقتهم التعليمية والمناهج الدراسية بالانتقاد اللاذع، ولكن بعد التدخل من قبل عبد العرزيز هو أعرض عنه،ثم أحيل إلى الأزهر.

والجانب الآخر المهم لقيادة طه حسين في هذا الصدد يمكننا أن نرى من أن أول من أرسى دعائم لمبنى النهضة،ومن أقام قواعد العمارة لليقظة، كان محمد علي باشا المتوفى سنة المتوفى سنة 1848م رأس الأسرة الخديوية،ثم حمل هذه الوراثة وأبقاها أحسن بقاء من كان من أخلافه مثل إسماعيل باشا المتوفى سنة 1895م،وأحمد لطفي السيد المتوفى سنة 1963م الذي كان من مؤسسي الجامعة المصرية، كذلك ولدت الرواية على أيدي محمد حسين هيكل سنة 1914م والقصة القصيرة على أيدي محمود تيمور المتوفى سنة 1973م ومصطفى لطفي المنفلوطي المتوفي سنة 1924م.حميع هذه الأطوار المختلفة للنهضة والحداثة مضت في زمان متعدد وعلى أيدي شخصيات عديدة،ولما جاء عصر طه حسين،كأن جميع هذه الأدوار المختلفة جمعت عنده،وادخرت في كتبه وأعماله وأفكاره ونشاطاته وبحوثه،فعندما هو أسس المدارس المختلفة بعد أن صار وزيرا للتعليم وأعلن مجانية التعليم،لمح بين أيدينا صورة محمد علي باشا،كذلك لما أعلن أنه لا فرق بين الفتاة و الفتى في الحصول على العلم وأن أبواب المدارس

[43] الأيام ،الجزء الثاني، لطه حسين ،الطبعة الأولى،مركز الأهرام للترجمة و النشر شارع الجلاء،القاهرة،1992م رقم الصفحة:290

والجامعات مفتوحة لكل أحد،ظهرت أمامنا صورة قاسم أمين الذي دعا إلى حقوق المرأة،كذلك لما خالف دلائل الخيرات والتوسل إلى الله بالأنبياء–عليهم السلام_و أولياء الله_رضي الله عنهم_هو كرر ما قاله أستاذه محمد عبده في الأزهر،كذلك نذكر محمود تيمور ومصطفى لطفي عندما نقرأ رواياته "أديب" و"دعاء الكروان" و"الحب الضائع" و"أحلام شهرزاد"،و"شجرة البؤس".ومحاولاته كانت أكثر من الآخرين في هذاالميدان،إنه ما فكر،كتبه ونشر وأذاع بدون خوف مهما يكن،وبدون أن يحفل بلومة لائم وبدون أن يرعى بصياح صائح،ثم نفذه إذا استطاع،وإذا أتت إليها الفرصة.

نجد على ستار الأدب العربي أسماء كثيرة من الكتاب وأهل العلم والفن في العصر الحديث،الذين رفعوا أصواتهم في حق الحداثة في اللغة والثقافة العربية،والذين جاهدوا في سبيلها حق الجهاد،ومن بين أشهرهم كان محمد عبده المتوفى سنة 1905م وقاسم أمين المتوفى سنة 1908 صاحب "المرأة الجديدة" ومحمد لطفي السيد المتوفى سنة 1963م ومحمد حسين هيكل المتوفى سنة 1956م ومحمود عباس العقاد المتوفى سنة 1963م،هؤلاء جميعا وغيرهم حاولوا في الإتيان بالحداثة في اللغة والثقافة العربية ولكن محاولتهم كانت على المستوى الضيق والبسيط، وكانت تدور حول موضوع واحد أو موضوعين فقط،ولا تحتوي على شتى الموضوعات فمثلا قام الأستاذ محمد عبده المتوفى سنة 1905م بتقديم صورة صحيحة للإسلام أمام الناس التي مسخت بسبب بعض الجهال،وكذلك دعا قاسم أمين الناس إلى تحرير المرأة من قيود الحجاب وكثير من المحظورات والمحجوزات المفروضة عليها من قبل الرجال،وجاهد في سبيل إعطائها حقوقا مثل حقوق الرجال،ورفع محمود عباس العقاد مع زملائه من مدرسة الديوان راية الثورة ضد الأدب العربي وخاصة الشعر العربي القديم وما في موضوعاته من الاعوجاج والانحراف حسب الأساليب الجديدة.أما طه حسين فلم يكن صوت الحداثة عنده منحصرا في موضوع من الموضوعات أو في فن من الفنون للأدب والثقافة،بل كان جهده _في أنسب تعبير_ لا يعرف حدوده،ولا يعرف منطقته،مثل محيط لا يعرف السابح عن عمقه،وعن مائه؛هو

أخذ الأدب العربي فذهب ضد الأدب الجاهلي المعروف والمتداول بين الناس،وأثبت بالدلائل ما كان فيه من الانتحال والاختراع والإضافة في العصور التالية،كذلك هو أعاد روحا جديدة إلى الأدب القديم الذي كان يعد من آداب اللهو والجنون والدعارة،وأعلن عن الجوانب الإيجابية والأطراف الصحيحة لها بنشر كتابه "حديث الأربعاء"في ثلثة مجلدات.ثم لما مس موضوع الثقافة،جاهر بالثقافة الإسلامية والأوربية واليوناية والمصرية القديمة،وقدم بين أيدي ما فيها من فوائد ومضرات وما في اتخاذه من منافع ومفسدات.هو تناول التقاليد والعادات المنبثة آنذاك في مصر وبلاد عربية إسلامية،فانتقدها وقبحها،وعرض صور الإسلام الصافية ووجهه النظيف في "مرآة الإسلام" وكثير من مقالته المطبوعة في الجرائد والصحف.جميع هذه المجهودات المكثفة تدل على أنها كانت ذات أنواع مختلفة وألوان متعددة،وجهده لم يكن سجينا لموضوع للأدب والثقافة دون أخر أو موضوعين لهما،بل كان حرا طليقا يختار موضوعا ما،إذا كان في حاجة إلى الجدة والحداثة.

لا فائدة لأفكار مهما كانت ذهبية وعالية،إن لم تنفذ وتعمل بها،ولا تكتب الحياة لها بين الناس إن بقيت حية وسالمة في أوراق الكتب وبين مجالس رجال الدين فقط،أما الأفكار التي تدخل في مرحلة التطبيق والتنفيذ،فلها البقاء والثناء ولو كانت أقل أهمية وأصغر شأنا وأحط قيمة.من هذه النظرية إذا استعرضنا طه حسين وجهوده نجد أنه يمتاز بين زملائه الذين قاموا بدعاية الحداثة في اللغة والثقافة العربية بسبب أنه نفذ ما فكر وطبق ما رآى؛لما صار عميدا للكلية في الجامعة المصرية هو مهد جوا صحيا لصفوفها التعليمية مناسبا ومساعدا لصحة التعليم،وأعلن عن إذن عام للمناقشة والجدال بين الأستاذ والتلميذ وكثيرا ما هو أوصى للتعليم المجاني في كثير من مقالاته وفي كتابه "مسبقبل الثقافة في مصر" الذي طبع عام 1938م ،وأعطى عملية الحياة لفكرة التعليم المجاني،وحقق أمنيته إذا صار مستشارا ثقافيا عام 1944م ووزيرا للتعليم عام 1950م وفتح باب الجامعة لكل مواطن بصرف النظر عن الدين والجنسية،وهدم نظاما قديما للتعليم، وبنى هيكلا جديدا معاصرا له يوافق كل الموافقة صورة التعليم في أوربا،ونفذ

مجانية التعليم أكمل التنفيذ،وأعلن أن التعليم عام وشائع لكل إنسان مثل الهواء والماء،وقام بتقويم نظام التعليم القديم وصاغه بصياغة الجدة والحداثة،ففتحت المدارس والجامعات في عدد كثير للجميع للفتيان والفتيات وللمسلمين وغيرهم،.أما الآخرون فلم يوفق لهم أن يبلغوا تلك المناصب ويطبقوا أفكارهم على الناس،لأجل ذلك نجد طه حسين قائدا للحداثة في اللغة والثقافة العربية.

ومثلت مراحل التعليم لطه حسين دورا بارزا في تثقيف أفكاره وتطوير أنظاره،واجتمعت له من الفرص ما لم تجتمع للآخرين،واستفاد منها ما لم يستفد غيره،هو نهل من الأزهر والجامعة المصرية في وقت واحد،كان في الصباح يسمع إلى أساتذة الأزهر،وفي المساء ينصت إلى أساتذة الجامعة المصرية وهم مسلمون مثقفون ومستشرقون،وتلمذ على أساتذة الشرق والغرب في آن واحد،واستفاد من القديم والجديد في نفس اللحظة،هو كان يقرأ العلوم الإسلامية أولا ثم يذهب إلى الجامعة فيدرس العلوم الجديدة مثل الجغرافية وتأريخ مصر القديم واللغة الفرنسية بطريقة تختلف من الأول كل الاختلاف،وشتان ما بينهما من البعد!ثم هو سافر إلى فرنسا حيث تعلم الفرنسية واللاتينية وتأريخ اليونان القديم،وهذا وفر له الفرص أن يقارن بينهما أقرب مقارنة وأدقها،وأن يزنهما بميزان تجربته وعلمه،ويقطع ما هو أفضل وما هو أنسب،وما سنحت لأحد مثل هذه الفرصة الذهبية من معاصريه للتعليم والتثقيف.

وكان طه حسين ملتقى التعليمين المختلفين ومجموعة من الخلفيتين المتعددتين:خلفية دينية و خلفية عصرية،في بداية الأمر قضى حياته العلمية في مدرسة دينية وجامعة دينية،ثم هو انتقل إلى جامعة عصرية وسافر إلى بلاد أجنبية،بعد ذلك ظهرت اختراعاته في الأدب واللغة والثقافة بالاستمرار والتواصل،ولو أمعنا النظر في جميع إنتاجاته العلمية والأدبية والثقافية والبحثية،نجد أنها ترجع إلى كلتا الخلفيتين بلا استثناء،هو كتب ونشر عن الدين كما كتب وأذاع عن اللغة والثقافة أيضا،فهناك تسوية بين كل الجانبين؛ هو أعطى حق كل فن،وأتى بالحداثة في كل

منهما،ولو كانت كفة الأدب مرجحة،وصار _نتيجة لذلك_ عميد الأدب العربي، ولكنه ما كتب في الدراسة الإسلامية والتأريخ الإسلامي وما استعرض استعراضا دقيقا ورقيقا من أهم الحوادث وأجلاها في زمان الخلفاء الأربعة _رضي الله عنهم_ حسب الأسلوب العلمي الجديد،هو يكفي أن نقول له إنه مؤرخ إسلامي جديد.

وكذلك لم يكن طه حسين ابن ثقافة واحدة أم ثقافتين فقط،بل كان صاحب ثقافات عديدة معروفة في العالم،هو ولد عربيا،ونشأ في تلك الثقافة العربية،ولكنه شب على الثقافة الفرنسية،سافر إلى فرنسا حيث استقر فيها حوالي خمسة أعوام، ولم يكن سفره هذا مثل أسفار زملائه الآخرين،خلال هذه السنوات إنه شاهد حضارة فرنسا وحضارة أوربا قديمة وحديثة عن كثب جدا،هو تعلم اللغة الفرنسية وفلسفتها وتأريخها واللغة اللاتينية والثقافات اللاتينية والإغريقية وهما ثقافتان عريقتان في التأريخ الإنساني،وعرف ما فيها من فلسفة وعلم خير معرفةونال الدبلوم والدبلوم العالي،وفي النهاية صارت الثقافة الفرنسية جزء لا يتجزى لحياته إذ عقد الزواج مع فتاة فرنسية،فصار جزء لها وهي جزء له.ومعالم حميع هذه الثقافات تتجلى في كتاباته،وأفكاره،هو تأثر كثيرا بفلسفة ديكارت الفلسفي الفرنسي المعروف،وأخذ يبحث عن أمور علمية بطريقة جديدة،هو لم يعتمد على ما قاله الأسلاف أو ما يقوله المعاصرون،في هذه الطريقة البحثية هو يكون رجلا علمانيا،لا يميل إلى وطنية ولا دين،ولا تقديس بل يقول ما تدل عليه الدلائل،وما تبين الشواهد،هو قرأ تلك الحضارات ثم شاهدها وجربها وفي الأخير اعتنقها وتعرض لها،وقلما اجتمعت جميع هذه الفرص لكاتب رفع راية علم الحداثة والجدة.

ونجد آثار الحداثة من بحوثه التي قام بها في مصر وفرنسا،هو التحق أولا بالجامعة المصرية،واختار أبي العلاء المعري وفلسفته موضوعا للدكتوراه،وكانت شخصيته مثيرة الخلاف والنزاع بين أهل العلم والفن منذ زمن قديم،وصار أول طالب للجامعة من حصل على شهادة الدكتوراه،ولما نشر الكتاب أثار ضجة كبيرة في أوساط أهل العلم و الفن،فلم يبتلعوا

محتوياته،ولم يهضموا مشتملاته،ولم يصبروا حتى هجموه هجمة عنيفة، لأنه كان دراسة جديدة عن حياته وفلسفته غير الدراسة التي كانت مألوفة آنذاك؛هو تناول عصر أبي العلاء الذي عاش فيه وبيئته التي تربى فيها بالدراسة الكاملة، ثم بين ما في فلسفته من أثر للنواحي الاجتماعية والفكرية والعلمية والثقافية والسياسية. ولما بلغ فرنسا اتخذ ابن خلدون وفلسفته في علم الاجتماع للبحث والاستقصاء،وكانت شخصيته ذات ثورة وتمرد في علم الاجتماع والتأريخ،واختلق لنفسه طريقة ضد طريقة كتابة التأريخ والثقافة الرائجة في ذلك الوقت،و قال إن أخطاء نفسية شائعة أن المؤرخ يميل إلى نحلته أو دينه أو يتعصب لمنطقته،فإذا كتب شيعي عن التأريخ،فهو بالغ في تذميم بني أمية وتقبيحهم وإذا كان الكاتب عربيا،فهو ينحني إلى عربيته ويذهب على العجمية،وهذا ظلم واضطهاد جدا على التأريخ والعلوم،كما يقول كامل زهيري في "طه حسين كما يعرفه كتاب عصره":"فإذا قرأت بعض صفحات هذه الرسالة القيمة،(أي رسالة ابن خلدون) وجدت فيها مايقودك إلى "منهج" فإذا بطه حسين يبين أن ابن خلدون يأخذ على المؤرخين الذين سبقوه أخطاء نفسية شائعة وخطيرة.ومنها تشيع المؤلفين "أي أن يضطر الشيعي ليشحن تأريخ الأمويين بأشنع الفضائح ،وأن يندفع مؤلف آخر إلى أن يخلق الأقوياء"[44]،كذلك من واجب المؤرخ أن يكون شاكا ومعلقا عن كل ما يبلغه،وأن لا يخضع لسلطان القوة والسياسة والعلم،بل يجاهر ما رآه حقا،وهذه الطريقة الكتابية تعرف بـ"المنهج العقلي" أيضا،هو يقول مزيدا:"ومن أجمل الصفحات وأروعها في هذه الرسالة حديث طه حسين عن أسباب الخطأ كما يراها ابن خلدون،وهي كثيرة،لكنها تدلك على أن ابن خلدون قد اقترح منهجا عقليا في مقدمته،ومن هنا اكتشف أن المجتمعات تختلف وتتشابه،وأن المؤرخ لا بد أن يلم بطبائع المجتمع،وأن ينقد "شاكا"و"معلقا" كل ما يصل إليه من رواية المؤرخين"[45].

---

[44] طه حسين كمايعرفه كتابه عصره،مؤسسة دار الهلال،القاهرة ،مصر،رقم الصفحة:146

[45] طه حسين كمايعرفه كتابه عصره،مؤسسة دار الهلال،القاهرة ،مصر،رقم الصفحة:147

ومن أهم الأسباب وراء قيادة الحداثة لطه حسين أنه اخترع طريقين جديدن للبحث والاستقصاء في أدبنا العربي والثقافة العربية وهما:"المنهج الديكارتي" و"المنهج الاجتماعي"؛هو اتخذ المنهج الديكارتي (هو منهج ابن خلدون العقلي أيضا) للأدب العربي والبحث أول مرة في تأريخه،وقرأ هذا المنهج على أستاذه ليفي برول في فرنسا،وكان سبق أن احتضن العلامة ابن خلدون المتوفى 808هـ هذا المذهب،ولكنه كان في كتابة التأريخ وعلم الاجتماع،وهو مذهب شك وارتياب قبل الإذعان واليقين،وهو منهج ديكارتي شهير،وكان ديكارت فلسفيا فرانسيسيا شهيرا، يدعو أهل العلم إلى هدف الصدق والإيمان بعد مرور من طريق التذبذب، وهذا المنهج المنطقي يمكننا أن نجد عند القدماء من المسلمين وخاصة علماء الحديث النبوي ﷺ الذين أهتموا كثيرا بفحص كل حديث بلغهم فحصا دقيقا وفتشوا عن كل راو ومستخرج بالتفصيل والإسهاب،ولم يعتمدوا على كل من هب ودب وروى الحديث ومن سبقه من المحدثين،بل قاموا بالجرح والتعديل،ووزنوا كل منهم بميزانهم العلمي والفني، جهودهم هذه أجادت فنا جديدا في تأريخ العلوم والفنون،وهو علم أسماء الرجال،وعلم الجرح والتعديل،ونفس هذا الأسلوب المنطقي نجد عند طه حسين أيضا للأدب العربي،إنه أعرض عن كل ما قيل عن الأدب الجاهلي، وعن المعري والمتنبي وبشار إعراضا تاما،وتجرد عنه كاملا،وصار خالي الذهن،وبدأ بحثه بطريقة جديدة،كما هو يقول في كتابه "الأدب الجاهلي"عن هذه الطريقة العلمية:"أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه "ديكارت"للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث،والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيئ كان يعلمه من قبل،وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما"[46]. والمنهج الثاني عنده هو منهج اجتماعي؛ويتضح هذا المنهج جليا عندما نقرأ كتبه عن شخصيات أدبية وتأريخية وعن تأريخ الإسلام،والفرق الأهم بين المنهج الديكارتي وهذا المنهج أن الأول منسوب إلى شخصية خاصة،وهذا لم ينسب إلى شخصية ما،بل هو تطور بمرور

---

[46] في الأدب الجاهلي،طه حسين،الطبعة الثامنة عشرة،دار المعارف،القاهرة ،مصر،2005م،رقم الصفحة:67،68

الزمان كما تطورت العلوم والفنون،وحسب هذه الطريقة أن شخصية ما أدبية كانت أو تأريخية،وأفكار ما هي ظاهرة اجتماعية،إذا برز فرد على صفحة التأريخ فمن المعقول أن نقول إنه وليد الجماعة والمجمتع،وأننا إذا قمنا بتحليل رأي أو فكر،علينا أن لا نعدل عن دور المجتمع الذي مثله،والذي ساهم في اختراع فكرة مساهمة مساوية.هو يقول في كتابه قادة الفكر:"الفرد إذن ظاهرة اجتماعية،وإذن فليس من البحث القيم العلمي في شيئ أن تجعل الفرد كل شيئ وتمحو الجماعة التي أنشأته وكونته محوا،إنما السبيل أن تقدر الجماعة،وأن تقدر الفرد،وأن تجتهد ما استطعت في تحديد الصلة بينهما وفي تعيين ما تطلبهما من أثر في الآداب والآراء الفلسفية والنظم الاجتماعية السياسية المختلفة"[47].

والآن نرجع إلى كتبه التي جاءت بالحداثة حسب الأسلوب والموضوع والمحتويات،ونبدأ كلامنا بسيرته الذاتية "الأيام"؛هذا الكتاب سيرة ذاتية لطه حسين،ولكنه يختلف عن الكتب الأخرى حول هذاالموضوع، هو لم يخاطب نفسه بالضمير المتكلم كعادة شائعة،بل هو تحدث بالضمير الغائب،ثم هو أحاط بجميع أحواله منذ الصبا إلى أن عاد من فرنسا إلى وطنه،بل يناسب أن نقول إنه صور حياته منذ الولادة، ورسمها أدق رسم وألطفه،ما من حادثة إلا ذكرها وأطال فيها الكلام و أحاطها من كل جانب، هو أشبه شيئ برواية منه بسيرة ذاتية، ولا نجد مثل هذا التصوير الدقيق عند الكتاب الآخرين، لا في الأدب العربي ولا في الآداب الأخرى، لانجده عند أحمد أمين في "حياتي" ولا عند عباس محمود العقاد في "أنا"،لا في أجنحة النار (wings of fire) لأي بي جي عبدالكلام لا في "تجربتي مع الصدق" لغاندي،أو"جهدي" لأدولف هيتلر. ثم هو أرخ الإسلام و المسلمين،ولكن أسلوبه كان هنا أيضا لايتفق مع أسلوب عهد به الناس،ولا يشاكله لا في الصورة ولا في المعنى، عندما يقارن مع الكتاب الآخرين وأساليبهم في التأريخ و خاصة تأريخ المسلمين،إنه كتب عن السيرة النبوية (على هامش السيرة) وعن الخلفاء الأربعة

[47] طه حسين كمايعرفه كتابه عصره،مؤسسة دار الهلال،القاهرة ،مصر،رقم الصفحة: 152

(الشيخان،والفتنة الكبرى عثمان وعلي وبنوه) وعن المعسرين من المسلمين الأولين (وعدالحق) وعن الإسلام (مرآة الإسلام)،جميع هذه الكتب ليست سرد واقعة أوبيان قصة فقط، كما يقوم به المؤرخون أو الكاتبون بل هي نتيجة لمختلف الكتب التأريخية وعصارة لمتعدد الشواهد العلمية،يبين فيه رأيه ويذكر فيه خطأ علميا إذا صدر عن أحد،كذلك يتغلب عليه لون الرواية والقصة،يبين التأريخ في قالب الرواية و القصة،حتى يشتبه الأمر على القارئ،هي كتب التأريخ أم كتب القصص و الروايات.وبعد عودته إلى مصر من فرنسا،هو نشر كتابه "حديث الأربعاء" في ثلثة مجلدات عام 1925م،وهذا الكتاب يتحدث عن الشعراء في العصر الأموي و العباسي والعصر الحديث الذين اشتهروا للدعابة والمجون والدعارة واللهو،هذا الكتاب أيضا أزعج بعض طبقة من أهل العلم و خاصة المتحفظين، واتهم كاتبنا بأنه يحاول تقذير الثقافة واللغة العربية بإحياء العبث والعادات القبيحة،فأجابه جوابا لم يعترض عليه أحد فيما بعد،وقال إن هدفه وراء الكتاب إحياء التراث العربي القديم و تقديمه بين الناس فقط،أما إذاعة المنكرات و الفواحش فهناك أسباب كثيرة في المجتمع لهذا العمل،وهي تعين عليه أكثر من نشر الأشعار الفاحشة.

وفي السنة التالية نشر كتابه الشهير "في الشعر الجاهلي"،في هذاالكتاب هو شك في الأشعار التي تنتسب إلى الشعراء الجاهليين،وادعى أن معظمها منحولة،اخترعها العرب في العصر الأموي و العصر العباسي،كما هو أكد على أن الكتب الدينية لا تكفي لثبوت حادثة حسب المعايير العلمية و الموازين البحثية،بل نحن نحتاج لها إلى شهادات تأريخية أيضا.هذا الكتاب أيضا قطب وجوه كثير من القدماء و خاصة الأزهريين،وتلقى زوبعة من الخالفة و المعارضة منهم،و لم تهدأ حتى حذف منه بعض البحوث،ثم نشر باسم "في الأدب الجاهلي".هل نجد في التأريخ الجديد من بغى على القدامة مثل هذا،أو من دعا أهل العلم إلى إعادة نظرة إلى جميع الأشعار من العصر الجاهلي في ضوء الموازين الجديدة،وهل جرؤ أحد على أن يرفض المفروضات والمظنات كما هو استطاع،كلا و حاشا!!.

هو أسهب وأطال في بيان الثقافة المصرية و الثقافة العربية في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر"،لم نجد كاتبا أو مفكرا تكلم هكذا ومس جميع الموضوعات التعليمة والثقافية،وغربلها بغربال النقد،أو قارنها بين القديم والحديث.في هذا الكتاب هو طالع جميع النواحي التعليمة، وتناول حميع المشاكل والعراقيل في هذاالسبيل بالمناقشة؛أول مرة في تأريخ الثقافة العربية قام رجل بتقديم خطط تعليمية مؤسسة على الطريقة الجديدة التي عرفها خلال إقامته في فرنسا،وخلال حضوره في الندوات والمؤتمرات العالمية في أوربا والعالم الإسلامي،دعا إلى الإصلاح والتقويم في الطريقة القديمة،وقدم فلسفة التعليم من حيث أن الحرية السياسية والحكومية لا تجدي فائدة إلا إذا كانت الحرية من الجهالة والبغاوة، والاستقلال من قيود الأمية والظلامة،وأن العبودية العلمية أقبح من العبودية السياسية،وأن الاستسلام للثقافة والفكرة أسوأ وأشر من الخضوع للحكومة والسلطة، والديموقراطية الحقيقية تحقق عندما يكون التعليم مجانا لكل فرد،وأن التعليم هو مصدر كل رفاهية،وباب كل انفتاح وانشراح،مفتاح كل ارتقاء ،وسبب كل ازدهار.

والجانب الأهم لكونه قائدا للحداثة في اللغة الثقافة العربية أنه لم يخش من إعلاء كلمة الثورة للتجديد في حال من الأحوال،ولم يكترث عن آخرة الأمر لبيانه وجرآته،وكان في الحقيقة شجاعا وبطلا كبيرا لهذا الميدان،وجرآته واعتزامه مثل جبل شامخ لا تصيبه العاصفة ولا الزلزلة،هو لم يخف غيض أبيه وتهديده من الرجوع إلى الأزهر ولم يزعزع أقدامه تهكم الزملاء والسخر في جامع الأزهر ولا تعيير الأساتذة بعميانه وفقد بصارته،لهذه العملية الجريئة هو كان على وشك الطرد من الأزهر،وإنه أقام معايير جديدة للبحث وموازين حديثة للعلم والتعليم،هو اتخذها لنفسه،ولزم بها كل اللزوم،ثم نادى الناس إليها،في هذا السبيل لم يحفل قط بلومة لائم،إن كانت،ولا بغض أهل الجاه والمال،حتى تناول الحكومة بالانتقاد لإعطاء الدكتوراه الفخرية لبعض السياسيين الذين كانوا لا يستحقونها عام 1932م وخالفها أشد المخالفة و أكبرها،فأقيل من منصب عمادة الكلية في "جامعة القاهرة"،واضطر إلى أن يضحى بمنصبه،ولكنه لم يتخلف عن

مخالفته ولم يكف عن موقفه،وكان مستعدا دائما لمواجهة مثل هذه المشاكل والمصاعب في هذا السبيل،لأنه كان يعتقد أن الأمة العربية في حال النوم الغريق فإذا حاول أحد إيقاظها،أهالت عليه وابل من السب والمقت،ولكنها لما ثبتت إليها نفسه وهدأت وذهبت منها لذة السبات،بدأت تحب من نبهها و من أيقظها،هو يقول في كتابه "فصول في الأدب والنقد": "وما من شك في أن النائم الذي يستيقظ وجلا مضطربا يمقت موقظه أشد المقت،وأنا مستعد والحمد لله لأتلقى مقت النائمين الذين أريد إيقاظهم.بل يظهر أني مستعد لأكثر من هذا،فالنائم إذا أفاق وثاب إليه رشده وعادت إليه نفسه،كف عن المقت و اللوم في أكثر الأحيان،ورضي عن موقظه حمد له عنفه.ولكني مستعد فيما يظهر لتقبل اللوم المستمر و المقت المتصل،لأني أرى في ذلك تقوية لهذه الحياة الأدبية التي اشتدت حاجتها في هذه الأيام إلى القوة والنشاط"[48]،لانستطيع أن نجد مثل هذه الجرأة و الشهامة عند كاتب آخر في العصر الحديث.

إن محاولة طه حسين للحداثة في الثقافة اللغة العربية تختلف عن الآخرين لسبب مهم أيضا،وهو أنه ولو حاول في المجيئ بالحداثة،ولكنها كانت من قبيل الحداثة التي لا تنكر القدامة تمام النكران ولا ترفضها كل الرفض، هو لم يغير لباسا قديما للغة والثقافة العربية،بل هو قام بترقيعه من الحداثة والجدة حيث كان منشقا ومنخرقا،ويمكننا أن نجد هذه المميزة له في الأعمال التي قام بها وفيما يلي من السطور نسلط الضوء على هذاالجانب المهم من خدماته العلمية.

في العصر الحديث اشتبك العرب أكثر اشتباك فيما بينهم عما إذا تقبل العامية مكان الفصحى،وصارعوا أكبر المصارعة عن إعطاء العامية أكثر أهمية وخطورة،قائلين إن قواعد الصرف والنحو المعقدة والعويصة في اللغة العربية الفصحى من أكبر الموانع للمحادثة وأعظم

[48] فصول في الأدب والنقد ،لطه حسين،الطبعة الرابعة،دارالمعارف القاهرة بمصر،1969م،رقم الصفحة:11

العوائق في سبيل الكتابة،وأجل الحواجز بينه وبين كونها لغة متطورة،لأجل ذلك رفعت الأصوات في طول بلاد العرب في حق العامية،وكان طه حسين ممن اتخذوا موقفا شديدا منها وخالفوا هذا الاتجاه باللسان والقلم،ورد أشنع رد وأعنفه على الذين أيدوا هذه النظرية،وتكلموا في دعامتها،هو صرح موقفه في جريدة "الأهرام" واضحا،كذلك بين في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر"تحت عنوان" ما اللغة العربية التي تتولى الدولة تعليمها"أسباب وراء إنكار العامية وقبول الفصحى،هو يقول:"أريد هنا أن يطمئن المحافظون عامة والأزهريون خاصة أشد الاطمئنان وأقواه،فاللغة العربية التي أريد أن تعلم في المدارس على أحسن وجه وأكمله هي اللغة الفصحى لا غيرها،هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف،وهي لغة ما أورثنا القدماء من شعر ونثر،ومن علم وأدب وفلسفة،نعم وأحب أن يعلم المحاظون عامة والأزهريون خاصة_إن كانوا لم يعلموا بعد_إني أشد الناس ازورارا عن الذين يفكرون في اللغة العامية أنها تصلح أداة للفهم والتفاهم،ووسيلة إلى تحقيق الأغراض المختلفة لحياتنا العقلية"[49].

كان عصر طه حسين شهد تغيرا كبيرا في الأشعار العربية،نادى الناس إلى تحريرها من قيود القافية والوزن،هم خرجوا على البحور المعروفة،ووضعوا مصطلح "الشعر الحر"أو "الشعر الجديد"أو "شعرا منثورا"،وقد ولدت هذه النوعية من الشعر على أيدي بدر شاكر السياب المتوفى سنة1964م أو نازك الملائكة المتوفاة سنة2007م_ اختلف أهل العلم_ في الخمسينيات من القرن التاسع عشر الميلادي،والشعر الحر كثير من المرات يبقى غموضا ولا يمتع السامع ولايهز الخواطر ولا يحرك العواطف،فوضح موقفه منه قائلا:"....من الشباب طائفة يرون لأنفسهم الحق في أن ينحرفوا عن مناهج الشعر القديم،وعن أوزانه وقوافيه خاصة،ولست أجادلهم في هذاالحق بل ليس لي أن أجادلهم فيه،فأوزان الشعر القديم وقوافيه لم تتنزل من السماء،وليس ما يمنع الناس أن ينحرفوا عنها انحرافا قليلا أو كثيرا أو كاملا، ولكن للشعر قديما

---

[49] مستقبل الثقافة في مصر لطه حسين،الطبعة الثانية،دار المعارف،القاهرة مصر،1996م،رقم الصفحة:182

كان أو حديثا أسسا يجب أن ترعى،وخصائص يجب أن تتحقق،فليس يكفي أن ينشئ الإنسان كلاما على أي نحو من أنحاء القول،ثم يزعم لنا أنه قد أنشأ شعرا حديثا،وإنما يجب أن يحقق في هذاالكلام الذي ينشئه أشياء ليس إلى التجاوز عنها سبيل.[50]

بعد قراءة هذه العبارات يمكننا أن نقطع أن حداثة طه حسين لم تكن حداثة تامة بل كانت ممزوجة بالقدامة و كانت رائحتها تفوح من أعمالها، كذلك هو دعا الناس إلى اتخاذ الثقافة الغربية،وبين عظمتها وذكر مميزاتها،ولكنه دعا إلى اتخاذ قدر ما يستفيد العقول و العلوم،واجتناب ما يفسدها ويخربها،ثم هو أعلن باللسان و الكتابة عن الثقافة العربية وما كان لها من دور عظيم في تثقيف الناس ورفع الحضارة الإنسانية وإذاعة العلوم والفنون في القرون الماضية،وأن أوربا تدين للإسلام و المسلمين بارتقائها وكرامتها،وعلى العرب أن يقفوا على آثار آباءهم الأجلاء إذا أرادوا أن يخلصوا نفوسهم من عبودية علمية لأوربا وأهلها،وإذا اعتزموا على أن يعيدوا عظمتهم السالفة و جلالهم الذاهب.

وخلال مطالعتنا لأعمال طه حسين الأدبية والعلمية نجد أنه هو الذي أعلى صوته في كل مرحلة من مراحل الحياة وفي كل منصب من مناصب العلم عن الحداثة والجدة،سواء كان مراهقا أو شابا،كهلا أو شيخا،طالبا أو باحثا،أستاذا أو عميدا،صحفيا أو وزيرا،مهما كان عمره ومهما كان المنصب،دائما رفرف علم الحداثة في اللغة والثقافة،وهذه الميزة من هذه النوعية لا نجدها عند الذين عرفوا بأعلام النهضة والحداثة في الأدب العربي مثل محمد عبده، قاسم أمين،ومحمد حسين هيكل،ولطفي السيد،والعقاد وغيرهم من بذلوا أحث جهودهم في إتيان الحداثة في اللغة والثقافة العربية.

---

[50] إقرأ، يناير،1968،عادل غضبان،دارالمعارف مصر رقم الصفحة:66

ثم هو قدم آراءه بالإسهاب عن تخلف المسلمين من السباق في ميدان العلم و البحث،و تقصييرهم عن قيادة عالم الإنسانية،على الرغم من تأريخهم الذهبي وماضيهم الرائع،وما كان لأسلافهم من إسهامات بهذاالصدد،واستعرض أحوالهم العلمية والثقافية استعراضا كاملا وشاملا، وبين الوجوه لإعادة الأيام السعيدة للمسلمين والمصريين،وذلك بواسطة تقليد حضارة أوربا في نشاطاتهم العلمية والفنية، وما فيها من حسن وجمال في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر".

الباب الثالث

الحداثة في اللغة والثقافة العربية

فيه ثلثة فصول

- التعريف بالحداثة ومصدرها في الأدب العربي
- الحداثة في اللغة العربية
- الحداثة في الثقافة العربية

الفصل الأول

التعريف بالحداثة ومصدرها في الأدب العربي

إن كل شيئ في هذا العالم يتغير ويتحول،يتدهور ويرتفع ويسقط ويزدهر،يحل به التجديد مرة والقدامة أخرى،ومن عادات العالم أنه يولد شيئ فيمر بمراحل الطفولة ثم يبلغ عمر المراهقة فعمر الشباب،وفي آخر الأمر تدهمه الشيخوخة،فتدفعها إلى الموت والفناء.نظرا إلى هذه العادة العامة والطبيعة الشائعة إن اللغة والثقافة العربية أيضا خضعتا لها ومضتا بمختلف المراحل ومرتا بمتعدد الأزمنة.هما شاهدتا أيام ولادتهما في بلاد العرب وتأريخ مكانها بالتحديد حتى الآن موضع الخلاف سبب النزاع عند أهل العلم والفن والتأريخ وأصحاب البحوث والاستكشاف، ثم هما بلغتا عمر المراهقة فعمر الشباب. والآثار الجاهلية التي هي عندنا تشهد أن اللغة والثقافة العربية كانتا وصلتا عمرا _أقل ما يوصف به_ هو عمر البلوغ والمراهقة،لأن اللغة والثقافة العربية كانتا في أتم صورة وأكملها؛لا نجد فيهما وخاصة في اللغة العربية أي اختلال أو انحراف عن القواعد النحوية والصرفية والبلاغية والعروضية التي وضعت فيما بعد، وحسب اللغة واللهجة والأسلوب أيضا، على الرغم من أن العرب كانوا مختلفين ومتفاوتين فيها،حتى يبلغ هذا التفاوت بعض المرات إلى درجة التناقض، وأساليب اللغة العربية في الشعر والنثر كليهما تلائم الذوق العربي: البدوي والحضري،وإنهما يرسمان لنا صورة المجتمع الذي كان عليه العرب قبل الإسلام،وتقاليده الذي كان في ذلك الوقت شائعا ورائجا.

ثم جاء الإسلام،ونزل القرآن على لهجة قريش،من هنا بدأت اللغة والثقافة العربية تتخطى في عمر الشباب وهذا العمر طال عليه أي طال عمره للفتوة؛فرأتا النضارة والخضرة زمنا طويلا،إذ حصلتا على درجة العالمية والشهرة الكبيرة؛من أسيا إلى إفريقيا فأوربا،وصارتا مصدر العلوم

والتكنالوجيا وسبب الازدهار والارتقاء إلى العصر العباسي الأول وهو سنة 232هـ،ثم هما تخاذلتا ونكصتا على القدمين؛فانكمشت دائرتهما وتقلص مكانهما،وأخذت اللثقافات الأجنبية واللغات الأخرى موضعهما،وهما صارتا محبوستين بين أهلهما وبلادهما.حتى جاء العصر الحديث وهو يبدأ من 1799م،إذ احتلت فرنسا على مصر.فبدأ عصر جديد للغة والثقافة العربية،وقام أبناؤهما لإنهاضهما ولرفعهما،وحاولوا أخلص المحاولة وأمحضها في أن يعطوهما حقهما الذي سلب منهما منذ قرون،وأن يردوا إليهما شرفهما وكرامتهما،فجرت الحركات بعضها خفيفة وبعضها الآخر شديدة،ورفعت الأصوات وكتبت المقالات والكتب وقدمت الآراء والاقتراحات وبنيت المدارس والجامعات للإتيان بالتجديد والحداثة في اللغة والثقافة العربية.وكان طه حسين من بين الذين جاهدوا في سبيلها حق جهاد،وكان صوته أعلى وأرفع من الآخرين وجهده أحث وأكثر من غيره.

والسؤال الذي يجيئ دائما هو ما معنى التجديد؟ وكيف نحدده في اللغة والثقافة العربية الحديثة؟ هل معنى التجديد أن نخلي أنفسنا من كل ما كتب آباؤنا ومن كل ما ورثنا منهم من آداب وثقافات،ونهجرها ونرجع إلى ما يسمى بالآداب والثقافات الأوربية الراقية في العصر الحديث؟ فنترك الطراز والبحور التي عليها تقرض الأشعار العربية،ونعرض عن الأساليب التي هي تسود على القصائد العربية؟من وحدة الوزن والقافية إلى كثرتهما وتعددهما؟ومن الموضوعات المحدودة مثل المدح والهجاء والرثاء والفخر والوصف والغزل إلى غيرها التي هي رائجة في اللغات الأخرى في هذا الزمان مثل الأشعار السياسية وأشعار المناسبات وغيرها؟ ونتخذ الطرق التي هي عامة في اللغة الإنجليزية والفرنسية في قرض الأشعار،كذلك ننكر جميع العلوم التي تتعلق باللغة العربية مثل النحو والصرف وعلم العروض وعلم البلاغة وعلم المعاني،بسبب أنها لا تجدر بالعصر الحديث وإنها اخترعت على أيدي آبائنا الأقدميين؟ ونحرم اللغة العربية من قواعدها القديمة العويصة ونحدث فيها القواعد الحديثة السهلة؟ فتكون اللغة العربية غير اللغة التي هي في القرآن الكريم والحديث الشريف،هي يمكن أن تكون عامية لا نراعي فيها قاعدة

ما،ولا نلاحظ فيها الاتفاق والوئام في الدول العربية،لأن العامية التي تتكلم في بلاد العراق هي تختلف من العامية التي تتحدث في مصر والسوريا،والعامية التي هي رائجة في المملكة العربية السعودية هي لا تحاذي العامية التي مقبولة في بلاد إفريقية. أو تكون اللغة العربية في خط الحروف اللاتينية أو في خط الحروف التركية كما يزعم أصحاب الحداثة المستنيرون،فمعنى هذه الحداثة يكون أن اللغة العربية فقدت خطها فقط ولكن لم تفقد ألفاظها ومعناها وتراكيبها كذلك الثقافة العربية تكون غير الثقافة التي وجدنا عليها آباءنا،هي لا تكون ثقافة الإسلام والعرب؟ حيث توجد في مجتمعها العلوم القديمة والفنون العتيقة والطرق المتذللة للتعلم والتعليم؟ وحيث يسود عليها نظام البحث الاستقصاء والاستكشاف الذي تم اختراعه في القرون الأولى للهجرة؟وحيث يسود عليها الميل الشديد للقدامة والعصبية المسرفة للاحتفاظ؟ وحيث يكون التقليد الأعمى في كل أمر من أكبر مظاهر؟ وحيث تقدس آراء الأسلاف وتحترم في كل أمر،فالخروج عليها والثورة ضدها تكون من الآثام والمنكرات عند بعض الناس.هذه أسئلة مهمة تجيئ بين أيدينا كلما نحن نتكلم عن الجدة والحداثة في اللغة والثقافة العربية.ومهما نحتج ومهما نجيئ بالدلائل والأشهاد في تأييد الحداثة ومخالفتها،ولكن يمكننا أن ننكر أن الحداثة ومعناها يكون إذا كان هناك تصور القدامة وإذا توجد القدامة وإلا فكيف نتصور الجدة ولا توجد القدامة؟ ولو لا القديم ما كان الحديث،ومعنى التجديد أن لا نحيد عن المادة وأصولها التي نريد أن تكون مشابهة العصر الحديث ومضارعة للثقافات المتطورة.إنما يعمل التجديد دائما في الفروع،ليس في الأصول،وليس في إماتة القديم بل في إحيائه وأخذ ما يجدر بالعصر الحديث وبالبقاء.يقول طه حسين:"فليس التجديد في إماتة القديم، وإنما التجديد في إحياء القديم،وأخذ ما يصلح منه للبقاءوأكاد أتخذ الميل إلى إماتة القديم أو إحيائه في الأدب مقياسا للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم ينتفعوا بها، فالذين تلهيهم مظاهر هذه الحضارة عن أنفسهم حين تلهيهم عن أدبهم القديم،لم يذقوا الحضارة الحديثة ولم ينتفعوا بها، ولم يفهموها على وجهها وإنما أخذوا منها صورا وأشكالا،وقلدوا أصحابها تقليد القردة لا أكثر ولا أقل"[51]،هذه كانت حال من لا يؤمن

[51] حديث الأربعاء،الجزء الأول،طه حسين،الطبعة الخامسة عشرة،دار المعارف مصر،1998م،رقم الصفحة:14

بالقديم ولا يجد فيه أي خير ،أما من يعنى بالتأريخ القديم والتأريخ الإسلامي الزاهر واللغة والثقفاة العربية القديمة هو ينتفع بالجديد ويفهم معناه خير فهم،ويقدر على إقامته على أساس متين.واللغة والثقافة العربية هما أساس من أسس الثقافة الحديثة،فيهما كنوز قيمة تصلح لعقول الشباب.والصلة لازمة بين الحديث والقديم لازم أن تكون قوية ومتينة،لأن اليوم الذي تنقطع هو اليوم الذي سيقضى فيه الموت على الأدب والثقافة،وفي أوربا قوم كثيرون يحسنون القديم من اللغة والثقافة ما لم يكن يحسن القدماء أنفسهم،ويعكفون على درس القديم أكثر من الحديث.فما للغة العربية أصول وقواعد لا يناسب أن نغيرها ولا يليق بنا أن نضيف شيئا إليها،ولكن يمكننا أن نبحث عن طريق تواجد اليسرة والسهولة في قواعد نحوها وصرفها وبلاغتها،كذلك الشعر لا يكون جيدا إذا خرجنا على علم العروض وقواعد الوزن والقافية فقط ولكن يكون جميلا إذا كان هناك روعة وجمال حسب هذا الزمن يليق بالذوق الأدبي،أما العامية وكتابة العربية في اللحروف اللاتينة وغير اللاتينية فهي مما لا يقبلها عقل واع وذهن مستيقظ،أما الثقافة العلمية والبحثية فهي لازم أن تتطور وترتقي ولا نعتمد على كل ما قاله القدماء وأن لا نؤمن به،فتأريخ اللغة والثقافة العربية خاصة العصر الجاهلي يمكن أن نعيد إليه النظر ونفتش من جديد عن كل ما كتب عنه،ثم اطلاعنا على الثقافة العربية لا يغنينا عن العثور على الثقافات الأخرى القديمة والحديثة المتطورة مثل ثقافة اليونان والروم واللغة اللاتينية واليونانية، فقد كان الأسلاف استفادوا منها كثيرا،وقرآة اللغة العربية لاتكفي أن نعرف قواعدها وأصولها فقط بل من الواجب أن نعرف تأريخها وجغرافية بلادها وسياستها وفلسفتها،وأثرات كل منها عليها،والعلاقات بينها وبين اللغات الأخرى السامية مثل الفارسية والتركية،وأثراتها فيها.هذا هو يكون التجديد وهذا هو معنى التجديد عند طه حسين،هو يؤمن بإحياء القديم وإضافة شيئ جديد إليه،وينكر أشد الإنكار أن نهجر القديم أو نغادر ما قاله وكتبه الأسلاف نعكف على الجديد تمام العكوف،فهذا مما لا يكون ولا يناسب.

الفصل الثاني

الحداثة في اللغة العربية

كانت محاولات طه حسين للإتيان بالجدة في الأدب العربي ذات مناحي مختلفة وأطراف متعددة،هو ألم بالآداب العالمية الكبيرة العريقية: آداب يونانية أو إغريقية وآداب لاتينية إلماما تاما وعرف ثقافاتها ولغاتها أحسن معرفة وأجملها، كما اقتطف كثيرا من الآداب الراقية: آداب أوربية وفرنسية خاصة،وكان بجانب الآداب هو طالع فلسفات عالمية وجغرافية بلاده مصر وأوربا وتأريخ كل لغة وأدب أعمق مطالعة وأغزرها،وقد كان بارعا في الأدب العربي وما كان له من التأريخ بين الارتقاء والانحطاط والازدهار والانهيار،ودرس أحوال العرب من الماضي إلى العصر الراهن أجود درس وأعمقه.جميع هذه الأسباب والأوضاع دعته إلى أن يرفع راية الجدة والحداثة في الأدب والثقافة العربية،وأن يعيده إلى ما كان له من زهرة في العصر الأموي ونضرة في العصر العباسي،ويزيل منه ما علقت به ألوان خاصة مدرسية محدودة؛قد قيده بعض الأصحاب في قيود الدين والسنة،فلا يدرس فيها الأدب واللغة إلا وسيلة لفهم الدين والقرآن ولا يدرس فنا مستقلا وحرا. وإن كان مستقلا بعض الأحيان في المعاهد الحكومية والجامعات المصرية وغيرها،فلم تعط لها الحقوق كما كان يستحق ولم ينصف معه كما كان يليق به الإنصاف.وكان عصر طه حسين عصر اضطراب وقلق للعالم الإسلامي عامة والعالم العربي خاصة حسب السياسة والحكومة،كان المسلمون تحت سيطرة المستعمرين من أوربا،لم تكن لهم الحرية في التعليم والثقافة والدين كاملا حتى يفرغوا لبناء البلاد والأمة،فكانت قوتهم وأهليتهم مبذولة تماما في سبيل نيل الاستقلال بدلا أن ينفقوها في طريق التثقيف والتحضير والتعليم،فيفيق العالم الإسلامي وخاصة العالم العربي ومصر من سبات عميق،ويستعد للنهضة والحداثة،ويتأهب للاستقلال والتحرير سياسيا وعلميا واقتصاديا،فكانت الجامعات والمدارس ذات المقررات الدراسية الجديدة تفتح بعدد كثير حسب المناهج الحديثة وفي جانب آخر كان تبادل

الثقافة وتغاير العلم تجري بأقصى حماسة وأبعد نشاطة بين الأمة المحكومة والأمة الحاكمة؛فترسل البعثات العلمية إلى أوربا،ويدعى بارعو الفن والعلم منها إلى الجامعات الشرقية.في مثل هذه الأوضاع الهلعة والأحوال القلقة قام طه حسين بالدعوة إلى الحداثة في كل جانب من جوانب الحياة؛في الجانب العلمي والثقافي والأدبي والسياسي والبحثي والنقدي والشعري،وحاول أخلص محاولة وأصدقها في هذا السبيل،وكتب عدة كتب ومقالات ورسائل في هذا الصدد،ولكن صوته كان أقوى وأعلى عن الجدة في الأدب والثقافة،وجهده كان أحث وأكبر في هذا الميدان منه إلى ميادين أخرى،وصدرت مخترعاته العلمية وإيجاداته الفنية في هذا المجال أكثر.وفيما يلي من السطور نحن سنستعرض محاولاته ومجهوداته للمجيئ بالتجديد في الأدب العربي.

كان الأدب العربي في العالم العربي عامة وفي مصر خاصة بين مذهبين:مذهب القدماء الذي كان يتبع في الأزهر وفي المدارس الإسلامية،ومذهب المحدثين الذي كان شائعا في الجامعات والمدارس الحديثة.كان الأول يركز على دراسة الكتب القديمة حسب المناهج القديمة في الشعر والنثر مثل "ديوان الحماسة" لأبي تمام المتوفى سنة 231هـ و"الكامل" للمبرد المتوفى سنة 286هـ وغيرهما،وينحو نحو الأقدمين من اللغويين والنقاد في فهم الشعر والنثر وتوضيحهما وتشريحهما، فأحيانا كانوا يتناولون الشعراء والكتاب بالانتقاد وبعض الأحيان كانوا يتخدونه بالإشادة والمدح حسب الضرورة،أما هؤلاء الجدد الذين كانوا يدرسون في الجامعات والمدارس الحديثة من المستشرقين والأوربيين فكانت طريقتهم التعلمية والبحثية والفكرية عن الأدب العربي مختلفا تمام الاختلاف من أصحاب القدامة،هم كانوا يهتمون بالآداب الحية من اليونان وأوربا اهتماما بالغا مع الأدب العربي والثقافة العربية،ويقارنون بينهما مقارنة حسنة،ويدرسون الطلاب الأدب في ضوء الثقافة والتأريخ.وهناك كان مذهب ثالث سوى المذهبين،وهذا المذهب الثالث كان يجري في المدارس الحكومية والمعاهد ودارالعلوم؛هنا كان يدرس كل شيئ سوى الأدب العربي باسم الأدب العربي؛لم يكن لأصحابها حظ من طريقة المحدثين ولا من طريقة الأقدمين

في الأزهر،يأخذون الشعراء والكتاب فيدرسون حياتهم ونماذج خاصة من شعرهم ونثرهم،ويستظهرونها ويحفظونها بدون أن يلقوا أدنى اهتمام إلى فهمه فهما أدبيا وعلميا،كان الأستاذ يملي على الطلاب ترجمات الشعراء والأدباء،وبعض أحوال عصورهم،ثم يسألهم أن يحفظوا في غير فقه وفهم،وهذا الحفظ كان يضمن لهم النجاح الباهر في الامتحان.ونفس المادة ونفس المضمون كانت تدرس السنة القادمة أيضا بدون تغيير وتبديل،حتى إذا تخرج طالب،يعرف بأستاذ وأديب،وهذه العادة كانت تجري منذ سنين غير قليلة،كأن المقررات الدراسية نزلت من السماء،لا يمكن فيها التحويل والتغيير.ومن أعجب الأمر نفس هذا الأسلوب أي أسلوب الإعادة والتكرار كان متبعا في الأزهر أيضا،وكان أصحابه مشغوفين به و محبين له،هم كانوا يقلدون القدماء في الأدب كما كانوا يقلدون في الفقه ولكن التقليد في الفقه كان لأجل العلم بالفقه،والتقليد في الأدب كان لأجل الجهل بالأدب.فارتسمت ملامح الانحطاط ومعالم الانهيار في الأدب على الصحف والمجلات والكتب،بدلا من الاختراع والإيجاد كانت هنا الإعادة والتكرار.وكانت الحكومة المصرية لم تكن مخلصة في تحرير الأدب من أغلال القدامة واحتكار أنصارها؛فهي لم تبعث البعثات العلمية إلى أوربا لتعلم الأدب والثقافة،بل لعلوم أخرى،حتى كان التعليم العالي والتعالمية المهنية تدرس باللغات الأجنبية،وكان الناس يشكون أن اللغة العربية لا تستأهل أن تكون وسيلة التعليم ولا تليق بأن تكون لغة الثقافة العالية.

هنا قام طه حسين وكتب عدة مقالات في حق اللغة العربية والدفاع عنها وكتب كتابه القيم والشهير"في الأدب الجاهلي"،و"حديث الأربعاء".و"في الأدب الجاهلي"خاصة يشتمل على الأدب ومشكلاته في مصر والعالم العربي بجانب الأدب الجاهلي وما فيه من النحل.أعلن في هذا الكتاب أن اللغة العربية ليست لغة جافة جدبة وعسرة الهضم،إنما هي لينة هينة خصبة ولذيذة،هي تسطيع أن تؤدي جميع أمور الحياة وتعبر عن جميع الخواطر والعواطف مهما كانت الحضارة والثقافة،ومهما دخلت فيها الجدة والحداثة،ومن مسؤولية أصحاب هذه اللغة أن يعدوا معلمين ماهرين ومحدثين في هذا الفن،كما يقول:"ليس في مصر أساتذة للغة العربية

وآدابها،وإنما في مصر أساتذة لهذا الشيئ الغريب المشوه الذي يسمونه نحوا وما هو بالنحو،وصرفا وما هو بالصرف،وبلاغة وما هو بالبلاغة،وأدبا وما هو بالأدب؛إنما هو كلام مرصوف،ولغو من القول قد ضم بعضه إلى بعض،تكره الذاكرة على استيعابه فتستوعبه"[52]،وقد مر الزمان وما خرجت على أيدي الكتاب والشعراء من الأثار التي يمكننا أن نسميها إضافة جديدة إلى الأدب العربي؛إنهم كتبوا في النحو والصرف كما كتب القدماء وقرأوا البلاغة كما كانت مقروءة منذ سنين،بل حولوا هذا الفن اللذيذ والطرب إلى فن معضل وجدب،ينفر منه الطلاب ويكرهه.أما الأدب العربي والأمة العربية فشتان ما بينهما من العلاقة والاتصال!

الأدب العربي والآداب الأخرى

إن طه حسين قد أعطى فن الأدب واللغة العربية من الأهمية البالغة والمكانة العالية ما لم يعطه أحد في عصره ومن كان من دعاة التجديد؛في أعينيه العلمية والبحثية إن الأدب العربي ودراسته ليست فنا بسيطا وضئيلا كما يظن البعض،حتى يكون وسيلة وذريعة لتعلم العلوم الأخرى، ويحتكره ناس لتعلم القرآن وفهم الدين فقط،إن له قيمة وأهمية كسائر الفنون والعلوم بل أكثر وأكبر من العلوم الكثيرة،هو فن وعلم يحيط بالعلوم الكثيرة ويشتمل على الفنون العديدة،ولا يقدر أدب أمة والأدب العربي خاصة على أن يزدهر ويرتقي إلا إذا تصرف عناية كبيرة إلى اللغات والثقافات والآداب الفلسفات الأخرى،أما في مصر والعالم العربي في ذلك الوقت، فكان لا يدرس من الأدب العربي إلا نصوص خاصة،وهذه النصوص كانت تجري منذ زمن بعيد،لم يكن فيها أدنى تغيير وتبديل،ولم يكن هناك عناية إلى الفلسفة ومظاهر الحياة الأخرى للكاتب والشاعر وعصره وبيئته فضلا أن يدرسوا اللغات العالمية الأخرى وثقافاتها،وبجانب تجربته الأدبية ومشاهداته العلمية في بلاد أوربا،قد استدل طه حسين من تأريخ الأدب العربي الزاهر أيضا،إنه

---

[52] في الأدب الجاهلي،طه حسين ،الطبعة الثامنة عشرة،دار المعارف بمصر،2005م،رقم الصفحة:14

يقول إن الأدباء العرب الأقدمين وشعراءهم كانوا على حظ كبير من اللغات والثقافات والفلسفات الأخرى،وهم استفادوا كثيرا منها وجنوا الفائدة منها،لأجل ذلك كان أدبهم أدبا رائعا وحيا وعالميا،لفت إليه أهل العلم والفن أنظارهم، والعصر العباسي الذي يعد من أزهر وأرقى العصور للأدب العربي كان معظم الكتاب والشعراء فيه أصحاب الثقافات المختلفة واللغات المتعددة؛ألم يكن الجاحظ صاحب ثقافات متعددة ولغات مختلفة؟ألم يكن ابن المقفع ذا الثقافات العديدة واللغات المتفاوتة؟وما ذا عن أبي العلاء المعري؟الشاعر والفلسفي الذي طالع الفلسفة الهندية والفلسفة اليونانية بدقة وعمق،ثم قدم فلسفته الذاتية،فكان أسلافنا من أهل العلم والفن على إلمام تام بالثقافات الراقية واللغات العريقة فما يمنعنا من تقليدهم واحتذاء خطواتهم؟

فلا بد لنا أن نقرأ الأدب العربي بطريقة غير طريقة متوارثة،حتى يسوغه كل طالب ويتمتع به ويستلذ منه.ولا سبيل إلى ارتقائه إلا إذا كان تدرس معه الآداب الراقية الأجنبية أي الآداب الأوربية واللغات والثقافات،وإذا كنا ندرس حياة اللغة وأطوار الأدب،والمخترعات المختلفة العلمية الإنجليزية.وقد أوجد طه حسين "منهجا اجتماعيا" في الأدب،وهذا أول مرة في التأريخ،وحسب هذا المنهج هناك صلة قوية بين الأدب والشعب،وكذلك بين الأدب ومظاهر الحياة المختلفة: العقلية والشعورية والدينية والجغرافية والسياسية،لا يستطيع الأدب ولا أصحاب الأدب أن يغضوا أطرافهم من الأمور التي تحيط بحياتهم.ولا يكتمل الأدب العربي ولا يمكن تصور أدب ما إلا إذا قرأنا ثم درسنا الصلات بين آداب الأمم المختلفة،وما كان تأثير بعضها في البعض،ويمكن استيعاب جميع هذه الشروط اللازمة لإتقان الأدب العربي إذا كان الإتقان الكامل في اللغات السامية وآدابها وإذا كانت توجد معلومات كافية عن اللغتين العريقتين في الحضارة الإنسانية:اليونانية واللاتينية وآدابهما،لأنهما كانتا أم العلوم والفنون والفلسفات،وقد خلفتا أثرا طويلا على الحضارة الإنسانية في كل مجال ومكان،ثم من الضروري أن نجيد اللغات الإسلامية وآدابها بما فيها اللغة الفارسية خاصة،لأن الترابط والاتصال قوي بينها وبين الأدب العربي قبل الإسلام وبعد أن جاء الإسلام،بل كانت العلاقة بينه وبين اللغة الفارسية بعد اختلاط

المسلمين من الفرس صارت أكثر توطيدا من قبل،أي من قبل مجيئ الإسلام،ولما اكتسب صاحب الأدب حميع هذه الخبرات والأهليات لتعلم الأدب العربي وتدريسه فعليه أن يدرس اللغات الأوربية الحديثة وآدابها،وأن يحسن دراستها وتعلمها،لأن أولي هذه اللغات في القرون الماضية والحاضرة حكموا العالم،ووجد الامتزاج والاختلاط الكبير بينهم وبين الأمة العربية والأمم السامية،فلغاتهم وثقافاتهم وآدابهم وفلسفتهم خلفت طوابعها ومعالمها،فبدون تعلمها ومعرفتها معرفة جيدة لا يمكننا أن نفهم الأدب الحديث للغة العربية،ولا نستطيع أن نطرب بأشعارها كما كان يجدر بها أن نطرب،يقول طه حسين عن هذا الصدد:"فمن زعم لك أن الأدب العربي يمكن أن يدرس الآن دون الاعتماد على هذا كله فهو إما مخدوع وإما مشعوذ.وكيف السبيل إلى أن يدرس الأدب العربي درسا صحيحا إذا لم تدرس الصلة المادية والمعنوية بين اللغة العربية واللغات السامية وبين الأدب العربي والأدب السامي؟وهل هناك سبيل إلى أن يدرس الأدب العربي دون أن تفهم التوراة والأناجيل!"[53]،فلأدباء ومدرسي الأدب أن يطالع إلياذة هوميرس وتمثيل الممثلين من أوربا،وعليهم أن يعرفوا الشاهنامة وعمر الخيام وشعر السعدي الشيرازي والحافظ الشيرازي،كما من اللازم أن يدرسوا الآداب العالمية الراقية،وهذا مما تقوم به الأمم الأوربية:الفرنسيون والإنجليز والألمان وغيرهم،وهذا ما فعله أسلافنا العظام.

الثقافة والأدب العربي

قام طه حسين بالدعوة إلى المعرفة عن الثقافة العامة المتينة قبل الخوض في دراسة الأدب،وعنده معرفة الثقافة جزء لا يتجزى قبل الحصول على علم من العلوم،سواء كان علم الكيمياء أو علم التكنالوجيا،لأن الأدب متصل بطبيعته بأنحاء الحياة المختلفة،وهو في حاجة شديدة إلى المقارنة والموازنة،ولا يستطيع طالب الأدب أن يفهم فنه إلا إذا تمكن من الثقافة

[53] في الأدب الجاهلي،طه حسين ،الطبعة الثامنة عشرة،دار المعارف بمصر،2005م،رقم الصفحة:17

المتينة الواسعة العميقة،لأنها قد أثرت في حياة الإنسانية كثيرا، وتغلغلت في الشعوب الغربية والشرقية كافة،فلا بد لنا إذن أن نقرأ هوميرس وأرسطوفان وشكسبير،وفي الدول الأوربية يأخذ الناس حظا لا بأس به من هذه المعلومات،ولو كانوا لا يقرأون الأدب فنا لهم،لأن الأدب في الحقيقة هو الأخذ من كل شيئ بطرف،لأجل ذلك كان الأولون يثقفون أنفسهم قبل أن يناولوا بالبحث الأدبي،وكانوا على ثقافة متينة واسعة قبل أن يكتبوا أو ينتجوا من الكتب.وكان كل أديب مثقفا قبل أن يكون لغويا أو كاتبا،والناس في بغداد ودمشق وكوفة وبصرة في العصر العباسي يجيدون القديم من لغة وأدب وفقه،وإلى إتقان هذا القديم كانوا يجيدون الجديد أيضا من اللغة العربية وآدابها،كانوا يعلمون تأريخ البلدان وجغرافيتها ويحسنون فلسفة اليونان وحكمة الهند وسياسة الفرس،ولو كانوا عاشوا في هذا العصر لكانوا عرفوا الثقافة الجديدة واللغات الحديثة،لو كان الجاحظ في هذا العصر لأجاد الآداب الأوربية ولألم بالثقافة الحديثة كما كان يجيد الفلسفة اليونانية،لأن الأدب هو الأخذ من كل شيئ بطرف:هو يقول:"فأنت ترى أن إتقان الأدب العربي والوصول بدراسته إلى حيث تنتج وتفيد،ليس من الأمور الهينة،وإنما هو يحتاج إلى هذه الثقافة التي أشرت إليها،وإلى كل هذه الدراسات التي أوجزت القول فيها إيجازا"[54].

ويبين لنا طه حسين أن مطالعة الأدب العربي في هذه الصورة المذكورة والشروط السابقة تمكن بعضا أن يقول أنه فن غريب وغامض وعسير جدا لأن الناس لا يستطيعون في هذا الزمان المعروفة بتوزيع العمل أن يجيدوا ويحسنوا جميع اللغات الحية والقديمة اللاتينية واليونانية والأوربية،وهذا صار من عادات الزمن الماضي لأنه يدفع صاحبه إلى الاضطراب والقلق الذي لا حد له.فيجيب أن في أوربا لا نجد أستاذ الأدب إلا وهو قد أتقن اليونانية واللاتينية أدبا وفلسفة،إلى جانب إسهامه في اللغات الحية، وليس معنى توزيع العمل أن لا نأخذ شيئا من كل علم سوى اختصاصنا في علمنا،وأن لا نبذل الجهود في تعلم الثقافات الأخرى.ألا نجد في هذا

---

[54] في الأدب الجاهلي،طه حسين ،الطبعة الثامنة عشرة،دار المعارف بمصر،2005م،رقم الصفحة:20

الزمان أن إخصائيين في علوم النبات والحيوان يأخذون شيئا من علم الطبيعة والكيمياء أيضا،و للعلمين هم ينالون حظا موفورا من الرياضة والجغرافيا والتأريخ،وبعد أن صاروا أصحاب ادخار كبير من العلوم والفنون،الآن هم يأخذون فرعا من فروعها،ثم يختصون فيها،هذه عادة الأمم الراقية،وعادتنا عندما كنا متطورين وكان أدبنا راقيا،فإذا نتمنى أن يكون أدبنا عالميا أو في مستوى الآداب العالمية وأن ترجع إليه الأيام الزاهرة،فعلينا أن لا نروح أنفسنا وأن لا نهدأ بل نضطرب ونبذل من الجهود أحثها ومن السعي أخلصها ومن المحاولات أمحضها في سبيل الارتقاء والاعتلاء.

تأريخ الأدب العربي والجدة فيه

ونجد أثار الجدة والحداثة عند طه حسين في الأدب من حيث التأريخ،إن تأريخ الآداب لا يحتوي على الأدب أي منظوم الكلام ومنثوره فقط وإن مؤرخها لا يكون مؤرخا إذا كان ينحصر تأريخه في اللغة وآدابها فقط،كان من عادات أهل مصر والعرب أنهم يكتبون تأريخ الآداب العربية على المستوى الضيق وعلى النطاق الضئيل؛هم يسجلون حياة الكتاب والشعراء ونماذجهم الأدبية فقط،بدون أن يتعرضوا لتأريخ الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية للكتاب والشعراء وأن يعرفوها معرفة قليلة وكثيرة حسب تأثيرها في الآداب،لأن الشعر والنثر يتأثران بالبيئة والعلوم التي تكون رائجة في أزمنتهم،كما هي تتأثر بهما،فالذي هو يؤرخ الأدب هو مضطر إلى أن يحيط بالعلوم الأخرى الكثيرة قرأءة وإجادة،فيقرأ تأريخ العلوم والفلسفة والفنون الجميلة،فمثلا مؤرخ الآداب اليونانية لا يكتفي بقرأءة تأريخ الآداب اليونانية فقط،بل هو يدرس الفلسفة اليونانية،وتأريخ النظم السياسية اليونانية وتأريخ الحياة الاقتصادية واليونانية،لأنها بدونها ناقصة ومبتورة،هل يستطيع أحد أن يفهم قصص أرسطو بدون أن يعرف جميع هذه العلوم التي ذكرناها آنفا،وهل نستطيع أن نفقه أبي العلاء المعري وأشعاره إذا لم نعرف العلوم الدينية الإسلامية كلها،والمسيحية واليهودية وديانات الهند وحكمها وفلسفة والطبيعة وعلم

الأفلاك والنجوم الرياضة؟ وإذا لم يذكرها مؤرخ الآداب؟ مهما كنا قادرين على فهم النحو وعلوم اللغة والمعاني والبيان والبديع،نحن لا نستطيع أن نفهم أشعار المتنبي إذا كنا جاهلين من الفلسفة الخلقية.ويمكننا أن نستدل بمثال آخر أيضا،وهو أشعار أبي نواس المتوفى سنة 198هـ،إننا لانفهم القصيدة الهمزية الشهيرة إذا كنا غافلين عن النظام وفلسفة المعتزلة ومعتقداتهم،وما كان لهم من مذهب وقوة وقبول في العصر العباسي،فمثلا هذا الشعر له:

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

لفهم هذا الشعر نحن محتاجون إلى أن نفهم المعتزلة الذين كانوا يعتقدون أن صاحب الكبيرة مخلد في النار،وشرب الخمر أيضا من الكبائر،فصاحبه يكون في النار مخلدا.فلفهم فلسفة المعتزلة نحن مجبرون على أن نعرف مذاهب مختلفة بين المسلمين وخاصة معتقدات أهل السنة والجماعة والمعتزلة،ثم يمكننا أن نعرف خمريات أبي نواس.فتأريخ الآداب لا ينحصر في الآداب فقط بل مؤرخها يكتب كل شيئ؛هو يؤرخ العلم والفلسفة والاقتصاد والاجتماع والدين والمذهب،كما يدرس ويكتب أصحاب الاقتصاد والسياسة عن الآداب إذا يؤرخون علومهم،يقول طه حسين:" تأريخ الآداب إذن لا يكتفي بالآداب،وإنما هو يؤرخ معها كل شيئ وأي غرابة في هذا!فهل يكتفي تأريخ الحياة السياسية بالحياة السياسية؟أليس هو مضطرا إلى أن يؤرخ الأدب والعلم والاقتصاد والفنون ليعينك على أن تفهم هذه الحياة السياسية؟وهل يستطيع أن يفعل غيرهذا؟ومتى كانت حياة الإنسان مقسمة إلى هذه الأقسام المنفصلة التي يستطيع بعضها أن يستغني عن بعض استغناء تاما؟"[55].

[55] في الأدب الجاهلي،طه حسين ،الطبعة الثامنة عشرة،دار المعارف بمصر،2005م،رقم الصفحة:31

فالأدب هو مأثور الكلام بين المنظوم والمنثور ،وتأريخ الأدب هو يأخذ العلوم الأخرى التي تعين القارئ في فهمه وتذوقه،ولا يتم التأريخ له إلا إذا يكتب مع حياة الشعراء والكتاب أحوال البيئة والاجتماع والدين أيضا.فهذه الناحية من الأدب شهدت الجدة والحداثة من قبل طه حسين.

والفرق كبير بين تأريخ العلوم الأخرى وتأريخ الأدب،إن تأريخ الأدب لا يستطيع أحد أن يكتب سوى الأديب بينما تأريخ العلوم الأخرى فهو يمكن أن يتم على أيدي غير أصحابها وغير الإخصائيين،فتأريخ الأديان يمكن أن يؤرخه من يكون ملحدا،وكذلك تأريخ السياسية يمكن أن يكتب على أيدي من لا علاقة له بالسياسة،ولكن هذا لا يجري في الأدب،وذلك لأن تأريخه لا يعتمد على مناهج البحث العلمي الخالص وحدها،بل هو يحتاج معها إلى الذوق أيضا،والملكات الشخصية الأدبية التي تمنح صاحبها الفرص الذهبية للتمتع بالأدب والتذوق منه،فإذا لم يتذوق ولم يطرب فكيف يمكنه أن يعطي الفرص للاستمتاع والتلذذ.فتأريخ الأدب أدب في نفسه من جهة،وعلم من جهة أخرى،كما يقول طه حسين:"ولكن الأدب لا يستطيع أن يكون علما كالعلوم الطبيعية والرياضية لأنه متأثر بهذه الشخصية.ولأنه لا يستطيع أن يكون بحثا موضوعيا كما يقول أصحاب العلم،وإنما هو بحث ذاتي من وجوه كثيرة.هو إذن شيئ وسط بين العلم الخالص والأدب الخالص:فيه موضوعية العلم،وفيه ذاتية الأدب"[56].

ونجد الجدة عن التأريخ والأدب العربي من نواحي مختلفة في كتابات طه حسين،هو أسهب الكلام فيها،وأطال،ومس هذا الموضوع بالتفصيل،وأتى بالأدلة والشهادات لإثبات موقفه من تأريخ الأدب،هو أخذه بالانتقاد والمحاسبة العلمية الدقيقة والبحثية العميقة،وبين ما فيه من الاختلال والنقص حسب المعايير العلمية الجديدة، وطلب من أهل العلم أن يعيدوا أنظارهم إلى ما كتبوا حتى الآن عن الأدب الجاهلي والأدب الإسلامي والأدب العباسي وأدب عصر

---

[56] في الأدب الجاهلي،طه حسين ،الطبعة الثامنة عشرة،دار المعارف بمصر،2005م،رقم الصفحة:33

الانحطاط،ثم قدم آراءه ومشورته للتسديد والتصحيح.وفيما يلي من السطور نحن سنسلط الضوء على هذا الأمر بالتفصيل.

من التقاليد المعبدة عند العرب وأهل مصر أنهم إذا كتبوا تأريخ الأدب العربي، يقسمونه في العصور المختلفة؛عصر جاهلي،عصر إسلامي،عصر أموي،عصر عباسي،عصر المملوك وعصر الانحطاط،ثم العصر الحديث.لما ذا نقسم آدابنا في هذه العصور المحددة؟ هذا التقسيم للآداب العربية في هذه العصور في الحقيقة حسب العصور السياسية والحكومية،وما العلاقة السياسة مع الأدب وفي ازدهارها وانحطاطها؟ ولما ذا لا يمكننا أن نقسمها إلى غير هذه العصور المختلفة؟هذا سؤال أول لتأريخ الآداب العربية الذي جرت العادة أن يكتبه كل عربي وكل مصري، لا نجد كتابا ما لتأريخها إلا على هذا المنهج وإلا على هذا الطريق.ثم يرفع طه حسين السؤال عن محتويات التأريخ وما يكتبونه من تراجم الشعراء والكتاب ونماذج كلامهم:يكون بعض الكلام عن الشعر وبعض الآخر عن النثر،وبعض الآخر عن الأمثال،وبعض الآخر عن الخطابة،وبعض الآخر عن العلم،قد تم التأريخ وتم البحث،ليس سوى ذلك ولا إضافة شيئ الجديد إلى هذا،ثم هم ينقلون جميع النقل أو بعض النقل ما كتبه ابن خلكان أو ما كتبه الثعالبي أو ماكتبه صاحب الأغاني،أو أصحاب كتب الطبقات والتراجم بدون أدنى حذف وأقل نقص أو أكثر زيادة.هذه العادة شائعة في طول بلاد العرب،وحيث تدرس اللغة العربية من بلاد العجم.وهذه الطريقة لتأريخ الآداب العربية في الحقيقة سقطت الآداب كثيرا،وأضرتها أكثر من أن نفعتها،والطلاب هم الذين في أكثر خسارة من أي فرد آخر،لأنهم لم يعرفوا من الآداب العربية إلا هذه الأسماء المحدودة والمعدودة من الشعراء والكتاب،ولم يعلموا إلا أبياتا من الشعر وقطعة من الأدب،ولكنهم زعموا أنهم أولي العلم والبصيرة في الآداب العربية،ولهم أيد طولى في هذا الفن،ولم يعرفوا أن هذه الطريق من العلم أضل وأعوج وأظلم،وأن الأدب الحقيقي حتى الآن غائب عنهم أي غياب،وهو مقبور ومجهول في بطون الكتب والأسفار.

ينكر طه حسين هذه الطريق من تأريخ الأدب العربي ومعرفته لوجهين مهمين:أحدهما أن الحياة السياسية لا تناسب أن تكون مقياسا للحياة الأدبية؛أي ليس من الضروري أنه إذا كانت الحياة السياسية راقية فالأدب يكون راق وخصب ومزدهر،وإذا كانت الحياة السياسية منحطة ومتدهورة يكون الأدب عقيما وجدبا،كما نرى أن الأدب العربي راق أيام بني أمية وصدر العصر العباسي،لأن الحياة السياسية في ذلك الوقت للمسلمين مزدهرة ومتطورة،فقد فتحت بلاد الفرس وبلاد الروم،ولم يبق في العالم من يتحدى المسلمين ومن ينافسهم في الحكومة.ثم أخذت السلطة العربية في الانحلال والاضمحلال،وأخذت الحكومة العجمية تغلب على عرش الخلافة،بدأ الأدب العربي يذبل وينجمد،ويكون على هذه الحال حتى تولى محمد علي مهام مصر،فبدأ ينتعش ويزهر وتمتد أغصانه النضرة.مما لا ريب في أن الأدب العربي كان راقيا في عصر بني أمية ولكن ليس من المحقق أن الحياة السياسية كانت راقية أيضا،لأن خلفاء بني أمية خصعوا لقياصر قسطنطينية وأذعنوا لهم،وأدوا بعض المرات الضرائب حتى لا يغيروا على بلا د الشام،كذلك من الأخطاء أن نظن أن هذا العصر كان عصر هدوء وسكون،ولأجل ذلك انتعشت اللغة العربية كثيرا فيها،بل كان عصر اضطراب وقلق وهلع،واشتغل خلفاء بني أمية كثيرا في دحض الفتن والثورات.وهكذا حدث في العصر العباسي أيضا،لم تكن حياة عز في الخارج وحياة أمن وسكون في الداخل،إذا لا يستطيع أحد أن يتأكد من أن الأدب العربي كان منحطا في القرن الرابع الهجري أوكانت السياسية راقية في القرن الأول والثاني.هناك صلة قوية بين الأدب والسياسة ولكن لا نسرف ونبالغ فيها حتى نجعل السياسة مقياسا للأدب ومعيار للغة،إن الصلة بين السياسة والأدب مثل الصلة بين الأدب وبين العلوم الأخرى:علم الاجتماع والاقتصاد والفلسفة وغيرها.وهي تؤثر فيها وتتأثر بها كما تؤثر فيها العلوم الأخرى وتتأثر بها،مرة تبعث في الأدب نشاطا ومرة أخرى تدفعه إلى الخمول والجمود.

وليس من الضروري أن نجد الأدب راقيا في مصاحبة السياسة الراقية فقط،ألم نجد أن الأدب العربي كان راقيا عندما انتشرت الفوضى في العالم العربي،وانقمست الخلافة في دويلات؟

فتنافس الملوك والأمراء بينهم في تشجيع الشعراء والكتاب،وسابقوا في تحريضهم على إنتاجات أدبية،فنتجت من هذه المخاصمة والمنافسة أدبا راقيا جدا في تأريخ اللغة العربية.نفس هذا الأمر حدث في الأندلس أيضا؛في القرون الأخيرة كان لكل دولة شعراء وكتاب،فازدهر الأدب كثيرا،وارتقى.ونجد في الآداب الأخرى العالمية شيئ مثله،فقد نشأت الآداب اليونانية كثيرا في القرن الخامس عندما تنافست المدن اليونانية،وكانت سياستها وحضارتها منحطة في ذلك الوقت،كذلك مر الأدب الإيطالي من نفس المرحلة إبان النهضة الحديثة.فالسياسة لا تكون مقياسا للأدب العربي مع أنه قد تطور أيام الرشيد والمأمون،وكانت الحياة السياسية لا بأس قوية ومتينة،ولكن هذا ليس من الضروري ومن اللازم،هذا هو الوجه الأول للإنكار والشك للطريقة المرسومة لتأريخ الأدب العربي،والآن نحن نتحول إلى الوجه الثاني.

الوجه الثاني المهم عند طه حسين في تأريخ الأدب العربي الذي يقتضي التجديد والتغيير اقتضاء سريعا أنه مصاب بالجمود والعقم،وهو سطحي،هوقائم على التضليل والكذب وعلى الغفلة والانخداع،لأن أصحاب تأريخ الأدب العربي يظنون أنهم كتبوا شيئا جديدا للناس عن العصر الجاهلي والعصر الأموي والعصر العباسي وعن الشعراء والكتاب والخطباء فيها،ولكنهم في الحقيقة لم يعرفوا من التأريخ إلا شيئا قليلا جدا،وأسماء وألفاظا وجملا قصيرة فقط،ليس سوى ذلك،وأين الجدة في هذا التأريخ،وهم لم يعرفوا من امرئ القيس وبشار والمتنبي والبحتري إلا ما عرفه المؤرخون في القرون الخامسة والسادسة وقبلها وبعدها،وهذا التأريخ صار كأنه علم لا يقتضي إلى زيادة ونقص،وحذف وإضافة،نحن نعرف أن امرئ القيس كان اسمه حندج بن حجر وصاحب قفا نبك،وأن بني أسد قتلوا أباه الذي كان ملكا لهم،ولكننا لا نجتهد أن نعرف قيمة فنية لأشعاره،وقصائده،ولا نحاول أن نعرف الصلة بين هذه الأشعار والناس والبيئة التي قيلت فيها،كذلك نحن نغفل من أن نحقق مكانة أشعاره بين معاصريه الشعراء،وموضوعاتها،وأساليبها، مثل هذه الأمور لازم أن نلاحظ وقت كتابة تأريخ الأدب العربي وتدريسه،وهذه الأمور تسبب الأدب الترقية والفن الازدهار،أما نحو أنصار الأقدمين في كتابة التأريخ فهو يجلب الكسل

والانحطاط والركود،كما يقول طه حسين:"هذا النحو من البحث السطحي شر،لأنه قاصر،ولأنه عقيم،ولأنه مرغب في الكسل،حاث على الخمول،ولأنه سبب انحطاط الحياة الأدبية حقا"[57].

ومن ناحية أخرى قد رفع طه حسين السؤال واعترض على أن القدماء وأصحاب القدامة يعتبرون الأدب العربي وتأريخه وحدة مستقلة لا تنقسم إلا بانقسام العصور،وفي الحقيفة لم يكن الأدب العربي هكذا في عصر من العصور،لأن المناطق التي افتتحها المسلمون في القرون الأولى لم تخضع للسطة العربية المركزية تمام الخضوع،بل كانت شخصيات هذه البلاد تظهر وتتمايز بمرور الأيام في مختلف العلوم والفنون،فقد برزت في بلاد الفرس والأندلس ومصر الآداب القومية،وليس من المناسب أن نتخذ بغداد ودمشق أو بمدينة متعينة مقياسا لجميع الآداب في وقت واحد،لأننا نجد الأدب العربي منحطا في بغداد في الوقت الذي كان الأدب مزدهرا في القاهرة وقرطبة،وبالعكس كان الأدب متدهورا في القاهرة وقرطبة في الوقت الذي كان متطورا في بغداد،كذلك كان متدليا في دمشق عندما كان راقيا في مكة المكرمة والمدينة المنورة،وكان مزهرا في البصرة والكوفة حينما كان منحطا في بغداد،فمن كون بغداد مركزا للخلافة الإسلامية ليس يعني أنها كانت مركزا أدبيا للمسلمين في جميع الأوقات،فالحياة السياسية لا تكون مقياسا ومعيارا للأدب واللغة،وكيف هذا يمكن؟فإننا لا نعرف عن كثير من الشخصيات الأدبية في مصر وبلاد الفرس والإفريقية الشمالية وصقلية وبيئاتها العلمية والأدبية المختلفة، إنما نحن نقرأ من كانوا في الحواضر الإسلامية الكبرى وندرس ما كتبوا من الشعر والنثر فقط،لأجل ذلك لازم بنا أن نعدل عن المذهب المعروف في كتابة تأريخ الأدب العربي ودراسته،ونضع طريقا يحيط بجميع من كان في الحاضرة والمدينة والقرية،وأن لا يتأثر بالسياسة والحكومة،وأن لا تكون السياسة مقياسا للأدب العربي.

[57] في الأدب الجاهلي،طه حسين ،الطبعة الثامنة عشرة،دار المعارف بمصر،2005م،رقم الصفحة:40

الأدب والحرية

عند طه حسين حرية الرأي جزء لازم وشرط ضروري للأدب وتأريخه ولكل علم.ومشكلة كبرى مع الأدب العربي أنه لا يدرس غاية،بل وسيلة وذريعة لفهم الدين والسنة ولعلوم أخرى،ويدرس من حيث هو سبيل إلى تحقيق غرض آخر،وهذا من أكبر الأخطاء بصدد الأدب. يضيف إليه الناس وأنصار القديم خاصة التقديس والاحترام،لأن اللغة العربية لغة القرآن والإسلام،وذريعة لفهم أمور الدين،ولكنهم في الحقيقة لا يقدوسونها بل يحتقرونها ويزدرأونها متعمدين وغير متعمدين،لأنها لا تدرس لنفسها،بل هي تدرس درسا إضافيا،فلا هي تملك وجودا مستقلا بين كثير من العلوم الدينية،ولو كان فهم القرآن والدين ممكنا بدون اللغة العربية، لاستغنى الناس عنها كل الاستغناء،ولأعرضوا عنها كل الإعراض.

وبما أنهم يسدون التقديس والاحترام إلى هذه اللغة؛فكيف هي تخضع للبحث العلمي السديد؟وكيف تمر بمراحل النقد والتكذيب والإنكار والشك؟لأن البحث العلمي يقتضي جميع هذه المراحل،ثم مع التقديس يصاحبها الازدراء والإهانة،لأنها وسيلة،وليست فنا مستقلا،فلم يحفل بها أحد للبحث والاستقصاء؟ولما يعتني أحد بالقشور؟ إنما يهتم بالعلوم والفنون التي لها وجود مستقل،والتي قائمة بنفسها وذاتها.ثم هناك علوم أخرى في البلاد العرب هي تتمتع بالحرية الكاملة مثل علم الحيوان والنبات،لا تتعرض السلطة ولا الحكومة لما يدرس في كلية الطب وكلية العلوم،ولا تسأل عنها،ولا تفرض عليها الحظور والعقوبات،فلما ذا يراقب الناس والحكومة اللغة العربية وآدابها؟ويجعلون الأسس والقواعد لتدريسها وتأريخها وبحثا.أما أوربا فهي منذ زمن بعيد أعطت اللغة الحرية الكاملة،وحررتها من قيود الدين وسلاسل التقديس ومنحتها الاستقلال من احتكار بعض الناس،هي الآن تتمتع بالحرية كما تتمع العلوم الآخرى علم الكيمياء وعلم النبات.لأجل ذلك لغاتهم وآدابهم أكثر تطورا وازدهارا من لغتنا وآدابنا.وإن الحرية تولد الجدة في الاختراع وتنتج الحداثة في الإيجادات العلمية،أما القيد والحظر فهو لا يخرج الأدب من حصار

الموضوعات المتوارثة والقديمة؛نحن لا نتكلم ولا نكتب إلا ما قاله القدماء،ولا نعيد إلا ما قد قيل بدون أن نزنه بميزان البحث والنقد وبدون أن نقدم آراءنا عن جميع ما كتب في الأدب من الشعر والنثر،وليس من مسؤولياتنا نحن أن نتعرض لإلحاد بعض الفرق ولكتفير بعضها عندما نقرأ الأدب واللغة،وأن نتكلم عن أهل السنة والجماعة والمعتزلة وأهل التشييع والخوارج وما بينهم من الخلاف والنزاع عن أصول الدين وفروعه،إنما هي من واجبات علماء الدين ورجاله.ومن واجبات الأدب وأصحابه أن يتناولوا النثر والشعر للبحث والانتقاد والتحليل والإنكار والشك والرفض،كما يتناول العلماء المادة للبحث،وهذا يمكن إذا أنصفنا مع الأدب وأعطيناه حرية كاملة.يقول طه حسين:"لن توجد العلوم اللغوية والأدبية ولن تستقيم فنون الأدب إلا يوم تتحلل اللغة والأدب من التقديس ويباح لنا أن نخضعهما للبحث كما تخضع المادة لتجارب العلماء".ويقول مزيدا:"فلتكن قاعدتنا إذن أن الأدب ليس علما من علوم الوسائل يدرس لفهم القرآن والحديث فقط،وإنما علم يدرس لنفسه ويقصد به قبل كل شيئ إلى تذوق الجمال الفني فيما يؤثر من الكلام".[58]

الجدة في البحث عن الأدب الجاهلي

قبل أن نتكلم عن الأدب الجاهلي وما لطه حسين موقف منه ،وأنه كيف أتى بالجدة والحداثة حسب البحث العلمي ،من المناسب أن نأخذ الفلسفة التي دفعت طه حسين إلى إقامة نظرية غير نظرية القدماء وأنصارهم حول الأدب الجاهلي،وأن نتحدث عن صاحب تلك الفسفلة البحثية الجديدة.

---

[58] في الأدب الجاهلي،طه حسين ،الطبعة الثامنة عشرة،دار المعارف بمصر،2005م،رقم الصفحة:59

إن من أهم أسباب وراء إنكار طه حسين أشعار العصر الجاهلي،أنه كان يعتقد في فلسفة ديكارت أخلص اعتقاد ويؤمن به إيمانا قويا، وكان ديكارت فلسفيا عظيما من فرنسا في القرن السابع عشر الميلادي،هو أثر دنيا العلم والبحث بفكرته وفلسفته كثيرا في العصر الراهن،ومن أهم فسلفته حول البحث هي فسفلة الشك والريب أو مذهب العقلانية،وكتابه "تأملات في الفلسفة الأولى" شهير جدا بهذا الصدد وهذه الفلسفة قد جاءت بالثورة والانقلاب في مجال العلم والأدب،هذا المنهج الفسلفي يطلب من الباحثين أن يخلعوا أنفسهم من كل ما يعرفونه من قبل،وأن يستقبلوا موضوع بحوثهم وأذهانهم تجردت من كل شيئ تمام التجريد،وأن يسلكوا مسلك الشك والريب عن معرفة حقيقة الأشياء،وأن لا يعتمدوا على ما قيل عنها.وهذا المنهج في العصر الحديث من أخصب المناهج وأكثرها تداولا وقبولا في مجال البحث والعلم.قد تناول طه حسين هذا المنهج،واستعمله تماما في بحثه وعلمه،لمطالعة الأشعار الجاهلية هو خلص نفسه من كل قيود ثقيلة تمنع الأيدي والأرجل والعيون والأذهان من الحركة الحرة والسير الحر.ودعا الناس إلى اتخاذ هذا المنهج في البحث والتحقيق،كي يسهل بنا أن نبلغ إلى الصدق والصحة،وأن ندفع عنا الكذب والافتراء.فإذا قرأ أحد أشعار جاهلية هو نسي كل عاطفة من عواطف دينية وقومية ولسانية وغيرها من العواطف،وطالعها من جديد،ولم يعتمد على ما قال القدماء وكتبه من الأغاني وكتب الطبقات والتراجم،وفي الأزمنة الغابرة كان معيار البحث والعلم عند القدماء من العرب والعجم والمسلمين واليهود والمسيحيين وغيرهم انخفض وانحط،لأن كل منهم تعصبوا لأنفسهم ضد غيرهم،ومالوا إلى قوميتهم دون غيرها؛فمن كان عربيا هو كتب في حق العرب،وبالغ في ذم العجم،و أخذ ما كان يلائم هواه وقوميته وترك ما يخالفها،ومن كان عجميا هو أرخ فيما يناسب قوميته،وأسرف في تقبيح العرب،وتناول ما كان يدعم قوميته وانصرف عما كان يهدمها،هكذا حدث مع كل أمة ونحلة.إن العصبية والهوى والقومية هي التي منعت القدماء من بحث علمي دقيق واستقصاء فني عظيم.

كان موضوع الأدب الجاهلي من أهم الموضوعات التي اتخذه طه حسين للبحث بحثا علميا وللمناقشة مناقشة فنية أدبية بدون أي نوع من الميول والعصبية،لهذا الموضوع هو كتب كتابا مستقلا باسم "في الأدب الجاهلي".في هذا الكتاب إنه شك كثيرا في الأدب الذي ينسب إلى العصر الجاهلي،وأنكر كثيرا من الأشعار وحياة الشعراء والخطباء الذين زعم الناس أنهم عاشوا في العصر ما قبل الإسلام.هو يقول:"فأول شيئ أفجؤك به في هذا الحديث هو أنني شككت في قيمة الأدب الجاهلي وألححت في الشك،أو قل ألح علي الشك،فأخذت أبحث وأفكر،وأقرأ وأتدبر،حتى انتهى بي هذا كله إلى شيئ إلا يكن يقينا فهو قريب من اليقين.ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شيئ،وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام،فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين"[59].ولم يكن طه حسين أول من شك في حقيقة الشعر الجاهلي والنثر الجاهلي،بل سبقه أن شك فيه محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة 232هـ في كتابه "طبقات الشعراء"،هو قال إن قبيلة قريش كانت أقل العرب شعرا في العصر الجاهلي ولكنها صارت أكثر العرب نحلا للشعر في الإسلام.

ولإثبات ادعائه لجأ طه حسين إلى الدلائل والأشهاد كثيرا، منها عقلية ومنها نقلية،إنه لم ينكر من وجود الأدب الجاهلي والشعر الجاهلي بل هو أنكر الأدب الذي ينسب إلى الجاهليين في الزي الموجود وفي الأسلوب الحاضر وفي اللغة الراهنة، إنه قال إن العرب نحلوا الشعر والنثر كثيرا ثم نسبوه إلى الجاهليين،والنحل والوضع ليس مقصورا على العرب فقط بل كانت الأمم الكثيرة ذات اللغات والآداب العالية أيضا ارتكبوا النحل والاختراع،ثم نسبوه إلى آبائهم وأجدادهم،وقد تم نحل الأشعار العربية في العصر الأموي والعصر العباسي،ومن أهم الأغراض وراء عملية النحل ترسيخ تقدم العرب وإثبات أوليتهم في الأدب بين الأمم،لأن الأمة العربية التي

[59] في الأدب الجاهلي،طه حسين ،الطبعة الثامنة عشرة،دار المعارف بمصر،2005م،رقم الصفحة:65

تنافسها الأمة الفارسية كثيرا في الحكومة والسيادة في العصر العباسي لما رأت أن الأمم الأخرى المغلوبة خاصة الفارسية والرومية تحمل أدبا رائعا وتأريخا عظيما_ولم يكن لها تأريخا عظيما في الحضارة والثقافة_رأوا من المناسب أن يكون لها الأدب والتأريخ والحضارة مثل الآخرين،وبهذا الطريق إنها قامت بنحل الأشعار ونسبتها إلى آبائهم وأجدادهم.وكذلك كانت المخاصمة الحارة بين العرب أنفسهم للسيادة والقيادة وخاصة عندما ذهبت ريح الخلافة الإسلامية من قلوب الناس،وتفرقت كلمة المسلمين،وتشتت شملهم،وبرزت جماعات وطائفات، وكل جماعة تثبت لأنفسها الحق والصدق وتكذب الآخرى،فمال العرب إلى ما كانوا عليه من عصبية القبيلة والمنازعة والمحاربة وكثير من الأمور الجاهلية،فأولا هم انقسموا بين القحطانيين والعدنانيين،ثم بين المضريين وغيرهم،ثم بين بني أمية وغيرهم،ثم بين بني هاشم وغيرهم،وكل قبيلة تستحق لنفسها السيادة والسلطة والعظمة والكرامة،فنسبوا الأشعار إلى شعرائهم وبينوا فضائل آبائهم ومكارم أعمالهم.

وتبرز أسئلة كثيرة حول حقيقة هذه الأشعار إذا أعمقنا النظر؛إن جميع الأشعار الجاهلية التي عندنا موجودة من المعلقات وغيرها هي معتمدة على الرواية ليست على التدوين والكتابة،ومن رواها؟رواها من كانوا منصرفين من الدين وأصوله إلى ما ينكره الدين والأخلاق من المجون واللهو والعبث،سواء كانوا من الموالي أو من العرب،ومن أشهرهم كان حماد الرواية وخلف الأحمر.كان حماد الراوية زعيم أهل الكوفة في الرواية والحفظ،أما خلف الأحمر فكان زعيم أهل البصرة في الحفظ والرواية.وكان كلا الراوئيان صاحب فسق ومجون ودعابة،مرغبا في الخمر والاستهتار،ليس لهما من الدين حظ ومن الأخلاق شطر،لهما كان أصدقاء اشتهروا بالخلاعة والدعابة،و هم مطيع بن أياس وحماد عجرد،ووالبة بن الحباب المتوفى سنة 170هـ،فكيف نعتمد على الأشعار التي هم رووا ونقلوا؟ وكانوا كلهم على إلمام تام بعلوم اللغة والبيان.كذلك تبرز الأسئلة حول الشعر والنثر الجاهلي من ناحية الشكل واللهجة واللغة أيضا،فمن المعروف أن لهجات القبائل كانت مختلفة ومتبائنة قبل العصر الإسلامي وقبل أن أعطى القرآن سيادة للهجة

قريش،ولكن أشعار العصر الجاهلي ما جاءت عندنا إلا وهي مصبوغة في لهجة قريش،وملونة بلونها تماما،فكيف هذا صار ممكنا؟كذلك كان الخلاف في اللغات أيضا بين الحميريين والقحطانيين،بين أهل الجنوب وأهل الشمال وبين المعربين والمستعربين،ولكن ما لنا لا نجد فرقا ما في شعر ونثر هؤلاء الشعراء والخطباء؟بل توجد المشابهة والمضارعة تماما.ثم من حيث الموضوع نجد ضعفا ووهنا كثيرا في الشعر الجاهلي؛إنه لا يترجم المجتمع الذي كان يعيش فيه هؤلاء الجاهليين،ولا يبين أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والعلمية،بل يصور المجتمعات الأخرى والثقافات غير الثقافات العربية الجاهلية البدوية والمدنية.

إن القرآن هو الذي يرسم لنا خير رسم صور مجتمعاتهم وبيئاتهم وأحوالهم العلمية،والفرق كبير بين ما يصور لنا القرآن وبين ما يصور لنا الشعر الجاهلي،فالشعر الجاهلي يقول لنا إن العرب كانوا على حظ كبير من الجودة والسخاء بل كانوا طبعوا وفطروا عليها،ولكن القرآن يعدهم من البخلاء والأشحاء الذين لا ينفقون الأموال في سبيل الإنسانية والحق،كذلك القرآن يقول لنا إن للعرب من العلم قسط كبير،وهم لا يؤمنون بالله متخذين الأدلة والأشهاد خلاف التوحيد والقيامة والبعثة،بينما ينقل لنا الشعر الجاهلي أنهم كانوا من الجاهليين ومن البدويين لا يعرفون من العلم شيئا ولا من الفن قليلا،كذلك بين لنا القرآن البحر وما فيه من خلائق الله مثل الأسماك،ودعا العرب والناس إلى إعمال الفكرة والروية في خلق السماوات والأرض،بينما كان الشعر الجاهلي لا يمس هذه الموضوعات لا قليلا ولا كثيرا،ونحن نؤمن بأن القرآن هو أصدق وأثبت من الشعر الجاهلي،لو كانت هذه الأشعار قرضت في ذلك المجتمع الذي كان قرب البحر والنهر لنجد ذكر هذه الأشياء في الأشعار،ولكننا لا نجد مثل هذا في الشعر الجاهلي،فهذا يقوي أن الشعر الجاهلي منحول وموضوع.

ومن أهم الكتب لطه حسين في الأدب العربي،والذي تكلم فيه عن التجديد وجاء به هو كتاب "حديث الأربعاء"في ثلاثة أجزاء،هو مجموعة من المقالات التي نشرت في صحيفة "السياسة"

وصيحفة "الجهاد"، الجزآن من هذا الكتاب يتناولان الشعراء وأشعارهم من العصر الجاهلي والعصر الأموي والعصر العباسي،أما الجزء الثالث فهو يحتوي على الأدب المعاصر،فيه الكلام عن المعركة بين القديم والجديد،ودراسة نقدية وبحثية عن الكتاب والشعراء ومخترعاتهم الأدبية.إن الشعراء الذين نالوا المكان في الجزأين الأولين هم كانوا على دعابة ومجون ولهو واستهتار في عصورهم المختلفة، وهذه العادات لهم قد أثرت في حياتهم العقلية والعلمية أيضا،وأشعارهم خير مثال لها.من أعرف هؤلاء الشعراء كان لبيد وطرفة والحطيئة ومجنون بني عامر وكثير عزى وعمر بن أبي ربيعة وأبي فراس وبشار بن برد وأبي نواس وغيرهم.ومن أهم المقاصد لطه حسين وراء جمع هؤلاء الشعراء هو إثبات أن الدعابة والمجون واللهو قد غلبت العصر الجاهلي والعصر الأموي والعصر العباسي،وكانت من أهم مظاهرها،وكلهم يعدون من كبار الشعراء وعظمائهم في عصورهم المختلفة.

وهذا الجمع والاختيار لمثل هؤلاء الشعراء أول مرة في تأريخ الأدب العربي،ولم يسبقه أحد من قبل لأجل التقديس والاحترام للغة الدين والقرآن،وليس من مقاصده أن ينبث في المسلمين أو المجتمع اللهو والدعابة والمجون، وأن يعيد الحياة إلى أدب الدعابة،لأن هناك أسباب كثيرة لانتشارها وأعون منها وأقوى لإذاعتها،كما يقول طه حسين في مقدمة الكتاب:"ونحن لم نكتب هذه الفصول وأمثالها لنحبب العبث إلى الناس ونرغبهم فيه،فإن في ظروف هذه الحياة التي نحياها مرغبات في اللهو ومحرضات على العبث أقوى وأبلغ من لهو "أبي نواس"،وعبث "مطيع" و"حماد""[60] إنما الغاية أن ما كتب القدماء وما قرضوا من الأشعار كلها لها قيمة أدبية وفنية،لا نستطيع أن نغض الطرف عن أهميتها وقيمتها،ولا نقدر على أن نعرض عنها،بسبب أنها تخالف الدين والقرآن والسنة،لأن هذه النوعية ن الأشعار تحتوي كثير من المرات على أدب قيم وثمين جدا،فيه من البلاغة والفصاحة ما لم يكن في غيره، ولأن الأدب فن مستقل وحر،ليس

[60] حديث الأربعاء،الجزء الأول ،طه حسين،الطبعة الخامسة عشرة،دار المعارف بمصر،1998م،رقم الصفحة:8

من المناسب أن نقيده بقيود الدين والسنة،ومن أهم مميزاته في العصر الحديث أنه يعطي صاحبه حرية التعبير،فهو حر أن يقرض ما يشاء وما لم يشاء،ويخطئ من المؤرخين والأدباء الإسلاميين الذين يزعمون أن الأدب العربي لم يشتمل على مثل هذه الأشعار قط، وكيف؟فإن عصور الأدب العربي قد شهدت ذلك،وحفظه التأريخ،وسجله المؤرخون، فنحن لا نستطيع أن نحذفه،ونمحوه،و لأن كل ما كتبه القدماء مفيد لنا ونافع،يقول طه حسين:"لأني أعلم أن حياة القدماء كلها ملك للتأريخ،وأن درس هذه الحياة كلها نافع للمؤرخ والأديب بل واجب عليهما،وأن من الإثم وتعمد الجهل أن نتكلف إخفاء ناحية من النواحي الأدبية ربما كانت أحق من غيرها أن تدرس ويعني بها الباحثون،وما كان لي ولن يكون لأحد من الباحثين الذين يقدرون العلم وكرامته،أن نغير التأريخ،أو أن نظهر عصرا من عصور الأمة العربية على غير ما كان عليه"[61].لأجل ذلك جمع طه حسين هؤلاء الشعراء في هذا الكتاب، وحسب نظرية "المنهج الاجتماعي" الذي يقول إن الفرد هو ظاهرة اجتماعية،وبينه وبين المجتمع صلة قوية،تدل دعابة هؤلاء الشعراء أن من أهم مظاهر ومعالم المجتمع والعصر في ذلك الوقت المجون واللهو العبث والشك.

إن طه حسين اخترع منهجين جديدين في الأدب العربي لم يكن له عهد من قبل،وهو صاحب المنهجين في الأدب العربي والثقافة العربية،وإليه يرجع الفضل في التعرف عليهما في تأريخ الأدب العربي، و لو أعمقنا النظر وأعملنا الفكر وجدنا أن جهوده في الإتيان بالجدة في اللغة والثقافة العربية كثيرا ترجع إلى هذي المنهجين،الأول منهما: المنهج الديكارتي الذي تكلمنا عنه قريبا،والثاني :المنهج الاجتماعي.وقد نجد ارتسامات المنهج الديكارتي واضحا على كتبه التأريخية والأدبية مثل "مرآة الإسلام" و"حديث الأربعاء" و"في الأدب الجاهلي"،على أن كتابه "في الأدب الجاهلي"هو الذي يظهر فيه ذلك المنهج في أكثر وضوح وأبرز نصوع،حيث تكلم

---

[61] حديث الأربعاء،الجزء الأول ،طه حسين،الطبعة الخامسة عشرة،دار المعارف بمصر،1998م،رقم الصفحة:7،8

عنه وعن صاحبه وأفرد له الباب باسم "منهج البحث"،وأما المنهج الثاني وهو المنهج الاجتماعي هو منهج حديث، ومظهرها كتب تتحدث عن الشخصيات مثل "قادة الفكر"،و"الشيخان"،"الفتنة الكبرى"، و"علي وبنوه"، وإلى حد كبير "حديث الأربعاء"،على أنه يبرز في أكمل صورة وأتم طريق في كتابه "قادة الفكرة"، في هذا الكتاب هو صرح واضحا عن هذا المنهج،هو يقول:"الرأي المقرر هو أن هذه الآداب والآراء(آراء عن الشخصيات) على اختلافها وتباين فنونها ومنازعها ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية،أي أنها آثر من آثار الجماعة والبيئة،أكثر من أن تكون أثرا من آثار الفرد الذي رآها وأذاعها"[62].في هذا الكتاب هو تناول المفكرين والقادة من اليونان مثل أرسطو وسقراط،والإسكندر وغيرهم من القواد الذين خلفوا أثرا طويلا على تأريخ الإنسان ومناحي حياته المختلفة فضلا عن الحضارة اليونانية والثقافة الغربية،تكلم فيه أننا كما نقرأ شخصيات هؤلاء القواد وعبقريتهم ونتحير من أفكارهم ونستفيد كثيرا منهم،كذلك من المناسب أن لا نعدل عن المجتمع الذي رباهم وعلمهم لأن شخصياتهم خير مرآة لذلك المجتمع وأفضل مصدر للمعرفة عنه.وهذا الكتاب كما يدل على منهجه الاجتماعي،يدل أيضا على حظه من ثقافة اليونان،وتأثره بها.

---

[62] طه حسين كما يعرفه كتاب عصره،المنهج الفكري عند طه حسين،كامل زهيري،مؤسسة دار الهلال القاهرة مصر،رقم الصفحة:152

الفصل الثالث

الحداثة في الثقافة العربية

قد حاول طه حسين في الإتيان بالتجديد في الثقافة العربية،وتثقيف العرب وعقولهم بالثقافة العلمية الجديدة والفنية الحديثة،وكتب عنها المقالات والكتب الكثيرة،وواجه المخالفة الملحة في العنف كثيرا في هذا الأمر من قبل أشياع القدامة والاحتفاظ.وهو أول من بين أصحاب الجدة من نفذ أقواله العلمية ومن أعطى وجودا خارجيا لأفكاره الثقافية في مناصبه المختلفة التي نالها في حياته؛من حيث كونه أستاذا جامعيا وعميدا لكلية الآداب ومستشارا لوزارة التعليم ووزيرا لأمور التعليم والثقافة.هو رآى عن كثب ثقافتين مختلفتين تمام الاختلاف في الهيئة والصورة والمعنى ومتفاوتين من حيث المكان والمنزلة:ثقافة منحطة لمصر وبلاد العرب،وثقافة راقية لفرنسا وأوربا،كان عنده في جانب واحد معيار التعاليم المنحدرة لمصر، وفي جانب آخر معيار التعاليم العالي في فرنسا،في أعينه كانت أمة محكومة ومنخفضة شديدة الانخفاض في ميادين البحوث والعلوم،وأمة حاكمة متطورة مسرفة في التطور في مجالات البحوث والعلوم،فرآى من الضروري أن ينبه الأمة العربية من النوم العميق وأن يقدم بين أيديها خططا ثقافية ومشروعات علمية تسطيع أن تتخذ بها سبل التطور والارتقاء،مخلصا وصادقا في نيته،لأجل ذلك لم يحفل بتهمة قاذف ولا سخط ساخط،بل بين وقال ما رآه مناسبا ونفذ ما ظنه صحيحا،في الحقيقة كان طه حسين يحمل أحلاما كبيرة وخططا عظيمة لمواطنيه المصريين خاصة وأهل البلاد العربية عامة،وإلى حد كبير هو فاز ونجح في مقصده،وأخذ العرب في التعليم والتدريس والبحث،وفي السطور التالية سنستعرض ما جاء به من التجديد في تثقيف عقول الناس في مصر وخاجها من بلاد العرب،ومحاولاته المخلصة بهذا الصدد.

لأجل تقديم آرائه حول الثقافة المصرية والعربية كتب طه حسين "مستقبل الثقافة في مصر"،على الرغم من أن هذا الكتاب يختص بالثقافة المصرية ولكن نظرا إلى فوائد محتوياته ومشتملاته، يمكننا أن نتخذه نموذجا للبلاد العربية جميعا،ولأن كان لمصر دور القيادة والريادة في أمور التعليم والتثقيف في بلاد العرب والعالم الإسلامي تماما،ومناهجها التعليمية الدينية تكون حسب جامع الأزهر،فهذا الكتاب يلقي الضوء الكامل على كل ما يتعلق بالثقافة المصرية والعربية،من حيث لا نجد ناحية من نواحيه ولا جانب من جوانبه إلا أحاط به وقيد فيه رأيه،ولا نجد أحدا يتكلم في مثل ذلك التفصيل والإسهاب حول التعليم والثقافة.حسب رأيه أن الثقافة العلم أساس الحضارة والاستقلال،ومصدر كل خير وباب كل ارتقاء ومفتاح كل ازدهار ودواء كل داء وعلاج كل مرض ،وأكبر مثال لهذا الازدهار أمم أوربية،إنها نالت السيادة والحكومة بسبب اتخاذ التعليم والثقافة، ليس سوى ذلك،والعالم العربي إذا يريد أن يرد إليه ما كان له من سيادة في التعليم والتثقيف،فعليه أن يعطي التعليم كل أهمية وقيمة،لايستوي أي أمر في قيمته وأهميته.

الحضارة الغربية وموقف طه حسين من الاتصال بها

من عادات الأمم والحضارات أنها تستفيد كثيرا من الآخرى،ومن البداهة الأمة المنحطة والحضارة المتدهورة تتأثر بالأمة الراقية والحضارة المرفوعة كثيرا بالنسبة إلى الأمة المزدهرة من الأمة المنهارة،فقد أخذ المسلمون فلسفة اليونان وحكمة الهند وسياسة الفرس في السابق زمان ازدهارهم،كذلك أخذت أوربا من المسلمين كثيرا للنهضة الحديثة،فماذا يحدث لو أننا اغترفنا من الحضارة الأوربية لارتقائنا؟وجنينا الأثمار من أشجار ثقافتهم الطويلة والراسخة لترفيه أحوالنا؟ يقول طه حسين:"وإنما السبيل واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء وهي واحدة فذة ليس لها تعدد وهي:أن نسير سيرة الأوربين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء

في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب"[63]،من هذه العبارات كما يتضح أن طه حسين دعا الناس إلى اقتفاء آثار أوربا في ميدان التعليم والثقافة،كذلك يظهر أنه غالى في هذه الدعوة وأسرف فيها إذ قام بدعاية حضارة أوربا مع كل ما فيها من خير وشر ومحاسن ومعاييب،وقال للناس أن يتخذوها.لأن حضارة أوربا صارت الآن من حضارات قبيحة في العالم،هي تنشر المفسدات التي تضر الأخلاق والعادات.هذه الناحية من التجديد أيضا تتصل بطه حسين إذ هو دعم حضارة أوربا وأيدها،وجعلها معالم التطور والارتقاء.

ولكنه في الصفحات التالية هو أنكر أشد الإنكار وأكبره في اتخاذ حضارة أوربا مع ما فيها من القبائح والمفسدات،وصرح أنه لم يرد منها السيئات والمنكرات التي تهدم صرح الأخلاق والإسلام،ولا ديانتهم المسيحية،بل هو دعا إلى خير ما فيها للارتقاء والنمو،ولم يخطر بباله أنه يريد أن ينفذ شر حضارة أوربا في المجتمعات الإسلامية وأن يحسنها وأن يحمدها،بل هو دائما أراد أن نحصل منها ما يجدينا النفع في حياتنا العلمية والثقافية،هو يدافع عن نفسه فيقول:"فإذا دعونا إلى الاتصال بالحياة الأوربية ومجاراة الأوربيين في سيرتهم التي انتهت بهم إلى الرقي والتفوق، فنحن لا ندعو إلى آثامهم وسيئاتهم،إنما ندعو إلى خير ما عندهم وأنفع ما في سيرتهم" ثم يقول مزيدا:"ونحن حين ندعو إلى الاتصال بأوربا والأخذ بأسباب الرقي التي أخذوا بها،لا ندعو إلى أن نكون صورا طبق الأصل للأوربيين كما يقال،فذلك شيئ لا سبيل إليه ولا يدعو إليه عاقل"[64].كما أن حضارتنا الموروثة وتقاليدنا المعروفة تمتلك الخير والشر كليهما،فيها دعابة الشعراء والكتاب ومجونهم ولهوهم،وغير ذلك،فإذا تكلمنا عنها وعن الاتصال بها لسنا أردنا الجوانب السلبية من هذه الحضارة،وسيئاتها وقبائحها، بل دائما أردنا منها الجوانب

---

[63] مستقبل الثقافة في مصر،طه حسين،الطبعة الثانية،دار المعارف القاهرة مصر،1996م،رقم الصفحة:39

[64] مستقبل الثقافة في مصر،طه حسين،الطبعة الثانية،دار المعارف القاهرة مصر،1996م،رقم الصفحة:44

الإيجابية والخير والمعروف منها.وقد سبق أن ارتبط أسلافنا من العرب المسلمين بأسباب الحضارة الفارسية واليونانية،ولم يرفضوه ولم ينكروه على الرغم من أنها كانت تشتمل على الشر والمنكرات أيضا بجانب الخير والحسنات.

ومن المستحيل أن نتوقع الخير كله من الحضارة أو من شيئ ما،لأن الخير المطلق في هذه الأرض لا يمكن،فمن الطبيعة أن حياتنا تكون مزيجة بالخير والشر،وإنما أمر الاختيار على المرء،هو حر ما يختار وما يريد،قد شهد المسلمون في تأريخ حضارتهم الراقية زندقة الزنادقة وفسوق القساق ومجون الماجنين،ولكنهم شهدوا مع هذا كله ورع أصحاب الورع والصلاح وزهد الزهاد ونسك النساك أيضا،قد احتملوا زندقة الزنادقة ومجون الماجنين،وإنها لم ترد في المسلمين إلا بسبب الحضارة الفارسية واليونانية.فورثنا جميع هذه المعاييب والمنكرات من حضارتنا،وهي محفوظة في التأريخ ومكتوبة فيه،فهل ننكر بشار بن برد وأبي نواس وحماد وغيرهم ونرفض أشعارهم وحكمهم وفلسفاتهم؟ كلا وحاشا إن اختراعاتهم الأدبية والشعرية من اعتزازنا ومن افتخارنا.فأمر الوربيين في هذه الأيام كأمر المسلمين أيام بني أمية وبني العباس،عندهم حضارة خصبة هي تنتتج كما تنتج الحضارة الإنسانية من الخير والشر،فيهم أصحاب الجد وأصحاب الهزل،فليس من بأس على حياتنا الدينية أن ناخذ أسباب الحضارة الأوربية،ولو كان حرج لاحترز آباؤنا من الاتصال بالحضارة الفارسية والرومية،يقول طه حسين:"فليس على حياتنا الدينية بأس من الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية، لأن أكثر مما كان عليها من بأس حين أخذ المسلمون في قوة بأسباب حضارة الفرس والروم"[65].

وعلى الرغم من أننا وجدنا أن طه حسين يشيد الحضارة الغربية ويدعو المسلمين إلى اتخاذها إذا أرادوا أن يعيدوا النضارة في ثقافتهم والرفاهة والرغادة في أحوالهم الاقتصادية،إلا أنه لا

---

[65] مستقبل الثقافة في مصر،طه حسين،الطبعة الثانية،دار المعارف القاهرة مصر،1996م،رقم الصفحة:46

يحتقر ولا يزدري الحضارة الإسلامية ولا يمنع من الابتعاد عنها والإعراض عنها؛فمن هذه الناحية هو لايقبل التجديد في كل شيئ أو الاستفادة من كل شيئ جديد،بل هو يؤمن بالتجديد بإحياء القدامة والاحتفاظ أيضا،هو كما يبين أهمية الحضارة الأجنبية وقيمتها في العصر الحديث،هو مع هذا يكتب عن خطورة الحضارة الإسلامية أيضا وما كان لها من دور في التأريخ الأنساني القديم في تحضيره وتثقيفه،وهذا مما يتجلى من خططه التعليمية والثقافية التي بين أيدي الناس.إنه خالف أشد المخالفة وأعنفها أن تعلم التعاليم في اللغات الأجنبية مثل الإنجليزية والفرنسية،بل اللغة القومية وهي اللغة العربية هي تكون أكثر فائدة وأنفع للطلاب والأساتذة،لأنها لغة الاتصالات والحوار والأمور الأخرى للحياة،هو يقول:"ما أظن أحدا يخالفني في أن من حق الدولة ومن الحق عليها أن تكفل لأبناء الشعب تعلم لغة الشعب وإتقانها،لأن هذه اللغة من أهم المقومات للشخصية الوطنية من جهة،ولأن هذه اللغة هي وسيلة التعامل والحياة بين أبناء الوطن الواحد"[66]،كذلك هو كان في حق فتح المدارس الأجنبية في بلاد مصر وبلاد العرب،ولكنه بشروط كثيرة تفرض عليها،ومن واجبات الحكومة أن تنفذها في جميع المدارس وخاصة في مدارس أجنبية، فهي لا تكون حرة في أن تدرس ما تشاء،بل تكون تحت مراقبة الحكومة ورعايتها؛فهي تعطي تأريخ البلاد وجغرافيتها وتعليم الدين مكانة مرموقة وتكون هذه الموضوعات من أهم المقومات الدراسية، وللحكومة يكون خيار كامل في التفتيش والبحث ثم اتخاذ خطوة حاسمة ضد من خالف القانون،وخاصة في أمور الدين لا تحتمل أي غفلة والتقصير،فهي لا تحرف التلاميذ من دين آبائهم وأجدادهم ولا تقوم بدعاية التبشير والدعوة كعادة المدارس الأجنبية،هو يقول عن التعليم الديني وأهميته:"فقد قدمت أن الدين مقوم من مقومات الشخصية الوطنية، وأنا مؤمن بهذا فيما بيني وبين نفسي أشد الإيمان، وقد كانت مصر ملجأ للتعليم الديني الإسلامي حين انحسر ظله عن كثير من الأقطار الإسلامية، وكانت مصر معقلا للإسلام حين عجز عن حمايته كثير من بلاد المسلمين"[67]،هذه الآراء والأخيلة

[66] مستقبل الثقافة في مصر،طه حسين،الطبعة الثانية،دار المعارف القاهرة مصر،1996م،رقم الصفحة:58

[67] مستقبل الثقافة في مصر،طه حسين،الطبعة الثانية،دار المعارف القاهرة مصر،1996م،رقم الصفحة:61

لطه حسين تثبت أنه لم يكن في حق تقليد أعمى للحضارة الأوربية ولكن في حق تقليد فيه احتياط وحفظ، وهذا الموقف له منها يرد من ظن به الظنونا عن دينه وعربيته قوميته،فالاتصال بحضارة أوربا عند طه حسين لا يسبب أن نقطع صلتنا بماضينا اللامع أو ننسى هويتنا وشخصيتنا،بل هو يريد أن يثبت المسلمون أمام الحضارة الأوربية من عدوانها وطغيانها وأن يستقلوا بوجودهم.

خطط التعليم والتثقيف لطه حسين

قدم طه حسين خطط التعليم والتثقيف بالتفصيل والإسهاب،هو تكلم أولا عن ضروة التعليم وإن التعليم الأولي ركن أساسي من أركان الديمرقراطية،وكما أن الديمقراطية تضمن للسكان حرية مع ضمان الحياة ولكن الحرية لا تكون مستقيمة مع الجهل ولا تعايش مع الأمية والغباوة، وإنما الحرية الصحيحة تكون إذا كانت تسهيلات التعليم لكل مواطن.ولا يكون هذا إلا إذا كنا آمنا بمهمة التعليم وشعرنا بخطره وقدسيته؛حتى جعلناه حقا لازما لكل مواطن كحقهم في الهواء والماء،فكما لا يستطيع شعب أن يعيش بدون الهواء والماء كذلك لا يقدر على أن يحيى بدون التعليم،هو يقول:"وأول ما يجب أن نلاحظه،ونحب أن يفهمه المشرفون على الأمر في مصر، أن التعليم ليس ترفا وإنما هو حاجة من حاجات الحياة، وضرورة من ضروراتها"[68]وفي موضع آخر،هو يقول:"وحين تنظر الدولة إلى التعليم على أنه غذاء للشعب لا يستطيع أن يعيش بدونه كما أن الطعام والشراب غذاء للشعب لا يستطيع أن يعيش بدونه،مع هذا الفرق الذي يظهر واضحا جليا وهينا يسيرا،وهو أن الطعام والشراب وكل ما يتصل بحياة الجسم من العناية بشؤون الصحة العامة ضرورة لازمة لتمكين الشعب من حياته الحيوانية التي يشارك فيها الخيل والبغال والحمير والدواجن،على حين أن التعليم ضرورة لازم لتمكين الشعب من أن يكون إنسانا ممتازا

[68] مستقبل الثقافة في مصر،طه حسين،الطبعة الثانية،دار المعارف القاهرة مصر،1996م،رقم الصفحة:103

من هذه الحيوانات مسيطرا عليها وعلى غيرها من عناصر الطبيعة في البر والبحر والجو والسماء أيضا"[69] وهذا الحلم في الحقيقة هو حقق عندما صار وزيرا للتعليم عام 1950م،و جعل التعليم مجانا لكل مصري مثل الهواء والماء، وجعله ديمقراطيا،فيه حق سوي لجميع المواطنين.

وفي العصر الحديث توجد كثير من المشاكل في الحصول على التعاليم،وقد مضى العصر الذي كان التعليم فيه مثل الهواء والغذاء،يوجد في كل مكان بدون مانع وصعبة وبدون نظام وقانون،أما في العصر الحديث ففيه أمر حصول التعليم للجميع صار من أهم الأمور للحكومة،هنا يكون نظام وقانون ومقررات دراسية متعينة، في هذا الصدد مشاكل كثيرة ومعقدة ومختلفة الأنواع،فيه مشكلة المال أولا ومشكلة المكان ومشكلة الرياضة البدنية،ومشكلة توفير جميع التسهيلات للطلاب.قد أخذ طه حسين جميع هذه المشكلات والمصاعب،وأراد أن يجد حلها في الحضارة الأوربية والحضارة الإسلامية.

فمن أهم المشكلات التي يواجه الشعب في التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي والتعليم العالي هي مشكلة مالية واقتصادية،هي من أكبر العراقيل ومن أعظم العقبات في بلاد ما بين تثقيف الناس وغباوتهم وجهالتهم في العصر الراهن.وقد يحرم عدد كبير من السكان من التعليم بسبب أنهم لا يملكون من المال ما يكفي للنفاق في سبيله،على أنهم وهبوا من الأهلية والصلاحية ما وهب غيرهم من جانب الله،وحرمان الفقراء والمساكين من التعليم الابتدائي والتعليم العالي تثبيت نظام الطبقات وتأييد سلطان المال وإضرار بالديمقراطية ومصالح الأمة جميعا،وهذا مما لا يأذن به قانون الإسلام العادل ولا العقل الإنساني المنصف.فمن اللازم أن نبحث عن حل يليق بالأغنياء والفقراء جميعا ويلائم طاقة الدولة والأمة تماما،وهو أن تؤخذ تمام الأجور للتعليم من القادرين

[69] مستقبل الثقافة في مصر،طه حسين،الطبعة الثانية،دار المعارف القاهرة مصر،1996م،رقم الصفحة:145

على أدائها،وأن نخفض الأجر من العاجزين عن أدائها.وهذه العملية أيضا معقدة وملتوية،فيها كثير من المشقة والعناية في تفريق بين الطبقات: بين الأغنياء والموسرين والمتوسطين والفقراء،ولكنها يمكن أن تحل وأن تسهل،وذلك بسبب الامتحان الذي سيجري بين من لا يستطيع أن يؤدي أجور التعليم،وهذا التعليم لازم أن يكون بالنظام السديد وبطريقة لا يعرف التوسل ولا القرابة.

ومن هذه المشكلات مشكلة الاقتصاد للمعلمين؛إن المعلمين عامة لا يؤدون من المال ما يكفي لقوتهم ولقوت أولادهم،وما يسد حاجاتهم وحاجات أهلهم،فأحوالهم الاقتصادية كثيرا ما تمنعهم من التمتع بالحياة كغيرهم،فلا يستطيعون أن يعيشوا كما يعيش الآخرون وأن يدرسوا أولادهم في خير المدارس أو أن يعطوهم التعاليم العالية والمهنية والاختصاصية.وفي جانب أخر هذا يؤثر ظروفا تعليمية للتلاميذ والطلاب أيضا الذين يتلمذون عليهم،لأن المعلمين عادة يتخذون مهنة أخرى لكسب المال غير مهنة التدريس والتعليم،فلا يعطون وقتا كاملا وراء المطالعة والدراسة كما كان لازما،ولا يجدون الحب والإعجاب والاحترام من قبل الطلبة، كما يقول طه حسين:"وما رأيك في معلم لا تريحه الدولة حتى من هذه النفقات التي يحتاج إليها ليعلم أبناءه،مع أنه ينفق جهده وحياته في تعليم أبناء الأمة ولا تستحي الدولة آخر الأمر مع ضآلة مرتبه من أن تطلب إليه أجور ما يحتاج إليه أبناؤه من التعليم"[70]فحسب طه حسين من واجبات الحكومة أن تعطي رواتبهم التي تكون كافية للإنفاق في بداية الشهر،وأن تزيدها حسب الخدمات التدريسية والبحثية والتعليمية،هذا يكون في صالح البلاد وفي حق الأمة جميعا.

وهناك مشكلة كثيرة عن المقررات الدراسية والكتب الحرة والامتحانات،ولعل مشكلة الامتحانات أكبر منها وأعظم في طول البلاد العربية والإسلامية.إن أصل الامتحان في مادة ما هو وسيلة

[70] مستقبل الثقافة في مصر،طه حسين،الطبعة الثانية،دار المعارف القاهرة مصر،1996م،رقم الصفحة:131

وليس غاية،ولكن لأجل التنافس الكثير والمسابقة العنيفة صار عند الناس غاية ومقصدا،به يختبر أهلية الطلاب وبه تعرف صلاحيتهم وخبرتهم،على الرغم من أنه ليس معيارا وحيدا للتعرف على جدارتهم في المادة.وهذه الفكرة قد جلبت كثيرا من المضرات والمفسدات للملكة الإنسانية وطبيعة العلم،لأن الطلاب لايقرأون ولا يجتهدون إلا أن ينالوا درجات عالية في الامتحان فقط،فازدادوا جهدا وعناية إذا حلت بهم مواسم الامتحان،هم لا يدرسون رغبا في التعليم والبحث،فلا يعكفون على الكتب والكراسات إلا إذا حان وقت الامتحان ولا يقرأون من الكتب إلا ما يتوقع أن يسأل في الامتحان.والنجاح فيه يكون غاية كل طالب،به تفرح الأسرة وبه يسر المعلمون والطلاب. ومن لم يحصل على الدرجات العالية ويرسب في مادة ما صار كأنه من أغبى الناس ذهنا وأثقلهم عقلا وأصغرهم فكرا.من التوافه أن نحفل بالقشر ونترك اللب،وأن نهتم بالوسيلة من حيث نهجر الغاية والمقصد،وهذه الفكرة كما تفسد العقل كذلك تفسد الخلق أيضا،كما يقول طه حسين:"وأظنك توافقني أيضا على أن تصور الامتحان على هذا النحو قلب للأوضاع، وجعل التعليم وسيلة بعد أن كان غاية، وجعل الامتحان غاية بعد أن كان وسيلة.وحسبك بهذا فسادا للتعليم،ولكن هذا لا يفسد التعليم وحده كما قلت،بل هو يفسد العقل والخلق أيضا"[71].ومشكلة الامتحان تبلغ إلى حد أخر أيضا،وهو من قبل المعلمين،فالمعلمون في كثير من المرات يعدون طلابهم للامتحان،ويحثونهم على اتخاذ بعض النصوص وترك بعضها الأخرى،و يقفون على هذا الجزء أو ذلك،ويطلبون من الطلاب أن يحفظوه، وأن يستذكروه، و يلحون في الطلب،وفي بعض المرات تنشر الكتب والمذكرات لاستعداد الامتحانات.

إذن من اللازم أن نقوم أمور الامتحانات ونصلح مفسداتها،لأن ليس المفر والنجاة منها،ولكن من الممكن أن نقل إلى حد كبير جوانبها السلبية.من هذه الإصلاحات أن نسهل الامتحانات ونهونها على الطلاب،فنوفر الفرص للذين هم رسبوا في امتحان أن ينجحوا في أخر وفي السنة

---

[71] مستقبل الثقافة في مصر،طه حسين،الطبعة الثانية،دار المعارف القاهرة مصر،1996م،رقم الصفحة:125

القادمة، وأن نعتمد على الأساتذة عن أهلية الطلاب وخبرتهم، وأن نجعل الامتحان وسيلة بدلا عن غاية، يقول طه حسين:'كيف السبيل إلى حلها؟فأجيبك بأن الامتحان شر لا بد منه،فلنتخفف من هذا الشر ما وجدنا إلى ذلك سبيلا،ونجعله وسيلة لا غاية،ولنصطنع بعض الجرأة،ولنرد إلى المعلمين ما هم أهل له من الثقة،ولنقدر آراءهم في تلاميذهم كما نقدر الامتحان أو أكثر مما نقدر الامتحان"[72].

ثم هناك مشكلة أخرى حسب المقررات الدراسية والكتب التي تكون خارجها،إن النظام التعليمي في العصر الراهن صار مقيدا بالمناهج الدراسية،فالطلاب مضطرون أتم الاضطرار وأكمله إلى أن يقرأوا كتبا خاصة معينة،وأن يطالعوا من الكتب ما كانت من المناهج،ولكن ما ذا عن الكتب التي تكون خارجها، وما ذا عن القراءة الحرة التي لا تقيد بمنهج ولا ببرنامج،ولا تقتصر على الكتب المقررة والمذكرات المتعينة.وحسب طه حسين إن القراءة الحرة أكثر فائدة وأجدى وأنفع من المطالعة المقيدة والمسجونة،لأن الإنسان يتعلم عن رغبة وميل أكثر مما يتعلم من إكراه وقسر؛في المنهج والبرنامج هو أجبر وأكره على مطالعة مادة خاصة وكتب محدودة،أما هنا في الدراسة الحرة فهو حر أن يقرأ ما تشاء نفسه،وما تريد طبيعته،والإنسان خلق وفطر على أن يحب الحرية ورضا النفس،وأن يسر بحركته المطلقة.ويزداد الأمر تعقيدا والتواء عندما نرى أن المعلمين أيضا لا يرغبون في الدراسات الخارجية والمطالعة الحرة،وهم أيضا مثل الطلاب لايخرجون من سجون الكتب المحدودة ومن المعلومات الخاصة.ولكنهم معتذرون وعندهم اعتذرات مبررة.لأنهم لم يمنحوا من المال ما يمنعهم من الاشتغال بالمهن الأخرى سوى التدريس ولم يعطوا من الوقت المتسع ما ينفق وراء نشاطاتهم الخارجية غير دراسية،إذن من مسؤولية الحكومة والإدارة والنظام أن يعدوا المناهج والطرق حتى تكون مطالعة حرة ودراسة سمحة. فمن اللازم أن نلقي العناية إلى أن تكون البيئة التعليمية ذات بيئة توفر الفرص للقراءة الحرة

---

[72] مستقبل الثقافة في مصر،طه حسين،الطبعة الثانية،دار المعارف القاهرة مصر،1996م،رقم الصفحة:128

والمطالعة السمحة.ولتنفيذ هذه الخطة يمكننا أن نسهل ونخفف أثقال الكتب الدراسية،وأن يدل الأساتذة الطلاب على كتب قيمة ومجلات مهمة في المكتبات.وفي الحقيقة إن دروس المعلمين تناسب أن تكون إرشادا لا تلقينا،وأن يدفعوهم إلى الاستكشاف والبحث عن الحقائق واستنباطها،وليس من المناسب أن يفرضوا على عقولهم استكشافات وبحوث.

تعليم اللغة العربية واللغات الأخرى

من أهم الموضوعات التي أسهب طه حسين الكلام فيها هي مشكلة اللغة العربية واللغات الأخرى،وتعليمها في المدارس والجامعات.إنه يرى أن تعلم لغة البلاد ضروري،لأنها لغة الاتصالات ولغة الكلام وغيرها،وبما أن اللغة العربية لغة العرب ووسيلة تبادل الآراء والأفكار وأداة للتعامل والتعاون وأداة للتفكير والحس والشعور فصارت ضرورة من ضرورات الحياة الفردية والاجتماعية ووسيلة أساسية إلى المنافع والفوائد مهما تختلف قربا وبعدا وعسرا ويسرا وسهولة وتعقيدا،فعليهم أن يتعلموها ويعرفوها.وكثير من الناس يظنون أنهم يتعلمون هذه اللغة لأنها لغة الدين والقرآن.وهذه الفكرة مخطئة وضئيلة،لازم أن يكون تعليمها وتعلمها أوسع من ذلك وأشمل وأعم،هي لغة غنية حسب الفنون والعلوم والآداب،فيها من الألفاظ والمعاني والكلمات ما تكفي للتعبير عن الخواطر والأخيلة في عصر ما وفي مكان ما،لأجل هذا نحن سنقرأها ونعلمها.

ثم اللغة العربية التي تدرس في المدارس لازم أن تكون لغة فصحى لا غيرها،هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف،ولغة ما أورثنا القدماء من شعر ونثر،ومن علم وأدب وفلسفة.أما اللغة العامية التي يتكلم عنها بعض المستيرين فطه حسين من بين الذين قاوموا ضد هذه النظرية السخيفة منذ أول يوم.وبعض من هؤلاء المستيرين يرون أن كتابة اللغة العربية يناسب أن تحول إلى الكتابة اللاتينية للتسهيل وللترويح.الذين يؤيدون هذه النظرية ويشيعونها بين الناس هم في

الحقيقة أصحاب الكسل والضعف،لا يريدون أن يبذلوا جهودهم وراء تذليل العقبات في هذا السبيل،ولا يتحملون المشاق والآلام في هذا السبيل.وهذه النظرية ذات أخطار جدا،إذ هي تعني أن نقطع صلاتنا مع الآباء والأجداد من الفلاسفة والكتاب والشعراء.يقول طه حسين:"أريد هنا أن يطمئن المحافظون عامة والأزهريون خاصة أشد الاطمئنان وأقواه.فاللغة العربية التي أريد أن تعلم في المدارس على أحسن وجه وأكمله هي اللغة الفصحى لا غيرها هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف، وهي لغة ما أورثنا القدماء من شعر ونثر،ومن علم وأدب وفلسفة،نعم وأحب أن يعلم المحافظون عامة والأزهريون خاصة _إن كانوا لم يعلموا بعد_ أني من أشد الناس ازورارا عن الذين يفكرون في اللغة العامية على أنها تصلح أداة للفهم والتفاهم"[73].ثم يقدم طه حسين اقتراحاته ومشوراته عن حل المشكلات التي يواجهها الجيل الجديد في تعلم اللغة العربية الفصحى؛من أهم المشاكل وأكثرها تعقيدا هي قواعد اللغة العربية:النحو والصرف ثم البلاغة.إن الإصلاح إذن محتوم وضروري لأن اللغة العربية تعلم اليوم كما كانت تعلم في العصور الماضية؛هي تأخذ وقتا طويلا في إتقان النحو والصرف والبلاغة،وليس للناس وقت متسع،وعلى الماهرين أن يبحثوا عن سبل الإصلاح والتقويم.وهذه الخطوة لا تضر باللغة العربية الفصحى ولا تعيبها ولا تحط من شأنها،بل تفيدها فائدة عظيمة،لأن كل لغة من لغات العالم تمر في عصر ما بمراحل الإصلاح والتهذيب،كي تناسب أذواق أهله وتوافق أذهانهم.فمن طرق الإصلاح أن نكثر استخدام الحركات،حتى يعصموا الطلاب من ارتكاب الخطأ،ويصيبوا القراءة، وأن تكون الكتابة تصويرا صادقا دقيقا للنطق،قوامه اليسر والسهولة والسرعة.ثم علينا أن نقصر تعلم النحو على القدر الضروري فقط، أما الذين يريدون أن يتخصصوا في هذه اللغة،فعليهم أن يتقنوها خير إتقان ويحسنوها خير إحسان.حتى تحبب هذه اللغة عند الجميع ولا يبعدوا من اللغة العربية الفصحى لأجل قواعدها فقط.

---

[73] مستقبل الثقافة في مصر،طه حسين،الطبعة الثانية،دار المعارف القاهرة مصر،1996م،رقم الصفحة:182

ومن هذه الاقتراحات لطه حسين وموقفه من اللغة العربية الفصحى،يمكننا أن نوقن بأنه لم يكن في صفوف المجددين دائما،ولم يكن يريد أن يكون هناك تجديد في كل شيئ،بل كان في صفوف المحافظين بعض المرات أيضا،وفي الحقيقة هو لم يكن مفرطا ولا مبالغا حتى يدعو إلى الجدة والحداثة في كل أمر وفي كل شيئ، وكذلك لم يكن مقصرا تماما حتى يغفل عن إصلاح ماهو محتاج إلى الإصلاح وإلى التجديد ما هو يقتضي التجديد.هو كان يأخذ بالاحتياط والحزم كل أمر عندما يدعم حركة من الحركات للتجديد أو تخالفه، وتأييده للعربية الفصحى خير مثال له.

وإن موقف طه حسين من التعليم والتعلم موقف واسع وعريض جدا،يشابه موقف الإسلام، يتجلى من كلامه وموقفه أنه كان يؤمن أشد الإيمان بأن الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها أحق بها، وأن لا يوجد الفرق بين عجمي وعربي وأجنبي ومواطن في هذا المجال،يمكن التلمذ على من كان عنده علم نافع، والاقتطاف والتغرف من صاحب علم وفن،سواء كان مسلما أو غيرمسلم،لا يناسب أن يقام جدار الدين والمذهب والقومية واللسان أو عصبية أخرى بين التعلم والتعليم. وكان يقدر كل فن ويعطيه أهمية تامة،ولا يتركه إلا إذا أيقن أنه بلغ إلى درجة الكمال والانتهاء،فلا يتحمل فيه أي إهمال وغفلة،إذا تناول موضوع تعليم اللغة العربية فلم يتركها إلا إذا أحاطتها من كل طرف ومن كل جانب،ولم يدعها إلا إذا قدم جميع المشكلات التي تحول بينها وبين تعلمها وإتقانها في مصر وبلاد العرب. فتعلم اللغة العربية والاختصاص فيها لم يكن كافيا عند طه حسين؛هو يقول إن فقه اللغة من أهم الموضوعات وألزم مادة لمن أراد أن يتعلم لغة ما،ثم هو كان منذ البداية في تدريس بعض اللغات السامية واللغات الشرقية،وثقافاتها،وهذه العناية لا تكفي بل من الواجب أن يلم إلماما تاما بتأريخ تلك اللغات وجغرافيتها وثقافتها.وإن اللغات التي ستدرس في المدارس والجامعات لازم أن تكون عديدية حتى يكون الخيار بين الطلاب،وليس من المناسب أن تدرس اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية فقط من اللغات الأوربية الحية ومن الحضارات الراقية لأن لغات أخرى غيرهما مثل الإيطالية والألمانية أيضا تبلغ في

الارتقاء والتطور إلى درجات حيث تبلغ الفرنسية والإنجليزية.فلتفتح الأبواب لاستقبال هذه اللغات أيضا،وأن المجتمع الذي فيه يصطبغ بألوان مختلفة من العلوم المعرفة واللغات والحضارات خير من المجتمع الذي يلون بلون واحد أو بلونين.

وكان طه حسين بجانب اللغة العربية واللغات الأخرى تركز تركيزا تاما على تعلم اللغتين العريقتين هما:اللغة اللاتينية واللغة اليونانية،وذلك بأسباب؛منها أن هذي اللغتين أثرتا في كل لغة عالمية حية،توجد ألفاظها وتعبيراتها في كل لغة،ثم إنهما تركتا أثرا عميقا على الثقافة الإنسانية.و أنهما لغات العلوم والفنون،ومن أهمها الفلسفة والسياسة والقانون الذي يجري في بلاد تحكم عليها الديمقراطية، كما أنهما حكمتا على البلاد المتحضرة وخاصة مصر وبلاد آسيا،فللمعرفة عن تأريخها معرفة صحيحة وعلما كاملا،يجدر بنا أن نرجع إلى هاتين اللغتين اللتين كانتا من لغات الحضارة الإنسانية الراقية في زمان ما.وفي العصر الحديث لا توجد بلاد راقية إلا وهي تعلم هاتين اللغتين وتجعلهما شرطا أساسيا لبعض الدراسات،وفي فرنسا كذلك للالتحاق بالجامعة على الطالب أن يتقن كلتا اللغتين مهما تكن مادة وأن كثيرا من المؤتمرات للتعليم في بلاد أوربا تحث على تعلم هاتين اللغتين.يقول طه حسين:"أن التعليم العالي الصحيح لا يستقيم في بلد من البلاد الراقية إلا إذا اعتمد على اللاتينية واليونانية على أنهما من الوسائل التي لا يمكن إهمالها ولا الاستغناء عنها.وإنا لا نعرف جامعة خليقة بهذا الاسم في بلد راق خليق بهذا الوصف لا تشترط اللاتينية واليونانية إحداهما أو كلتيهما على أنهما شرط أساسي لبعض الدراسات،وللدراسات الأدبية والفقهية بنوع خاص"[74] ولتدريسها يمكننا أن نعتمد على الأساتذة الأجانب ولكن خير لنا أن نستوظف المصريين أو العرب حتى يسهل للطلاب أن يتعلموا بسرعة وبسهولة ويسر.

[74] مستقبل الثقافة في مصر،طه حسين،الطبعة الثانية،دار المعارف القاهرة مصر،1996م،رقم الصفحة:169

وهناك موضوع خاص يتعلق بالمثقفين وأولي العلم والفن،قد مسه طه حسين وتكلم عنه،وهو أسباب وراء قلة إنتاج المثقفين وحلها.ليس مصر ولكن البلاد العربية جميعا تشكو من أزمة المثقفين،وقلتهم،أما البلاد الأوربية فهناك عدد كبير لهم يوجد في كل مكان،ويتخرج كل سنة.ومن أهم الدوافع وراء هذه الأزمة هي تقصيرنا في نظامنا التعليمي وتفريطنا في العناية والاهتمام به،منها أن الدولة في بلاد العرب لا تشجع المثقفين والأدباء على إنتاجات واختراعات،فلا ترغب في نشر الكتب ولا في إذاعتها ولا تمويل أصحابه، كما تفعل فرنسا والدول الأخرى الأوربية، وأن الشعب أيضا لا يحضون أدباءهم على الإنتاجات والاختراعات،ففي فرنسا وإنجلترا مثلا أخمل الأدباء واثق بأن عدد القراء لكتابه سيبلغ آلافا كثيرة، والكتب القيمة تطبع مرات، وبينما في مصر أو في بلاد عربية فأعرف الأدباء متيقن أن عدد القراء لا يبلغ إلا ألوفا وذلك ليس في عام واحد أو عامين بل في أعوام،وإن الكتب القيمة لا تطبع إلا مرة أو مرتين.الأمر الآخر بهذا الصدد أن البلاد العربية وعامة الناس فيها لا يعطون حرية كاملة لأدبائهم وأصحاب الفن والأهلية أن ينتجوا ما أرادوا،وأن يخرجوا ما شاءوا،فكثير من الإنتاجات القيمة والمهمة لا تظهر وتموت حتف أنفها بسبب هذه القيود والمحظورات.أما البلاد الأوربية فهي تستقبل كل ماخرجت على أيدي أدبائهم وأصحاب فنونهم،لأجل ذلك هناك كثرة وههنا قلة.هذه أهم المشكلات في سبيل تطور الثقافة العربية والأدبية،وهي لا تمحى إلا إذا كانت هناك مجهودات من قبل الحكومة والشعب جميعا،وفي الحقيقة على أكتاف أولي الأمر وأصحاب المسؤولية واجبات كبرى للإصلاح والتقويم.

خاتمة

الحمد لله الذي وفقني خير توفيق أن انتهيت من هذه الدراسة الوضيعة،فله الشكر والحمد.وقد استفدت كثيرا منها،وإنها زادتني علما ومعرفة عن مختلف الجوانب للغة والثقافة العربية الحديثة بالإضافة إلى تأريخهما وإسهامات الشخصيات في تحديثهما وتجديدهما، كما وفرت لي الفرص أن أعرف طه حسين عن كثب خلال كتبه ومقالاته والدراسات عنه مباشرة،فأعانني في تفنيد بعض المعلومات التي شائعة بين أهل العلم والطلاب خاصة.

وهذا الموضوع من أخطر الموضوعات للدراسة،إذ كانت وستكون شخصية طه حسين أكثر الشخصيات دراسة وكتابة ونقاشا في العصر الحديث،لأنه ذو جوانب مختلفة ومناحي متعددة؛هو أثار أكبر ضجة في التأريخ الحديث للغة والثقافة العربية بأفكاره وأعماله،ولم يحفل بنهاية الأمر ولم يكترث لآخرته بل هو أعلن ما رآه صوابا وبين ما ظنه حقا،وقلما يمنح أحد هذه الجرأة والشهامة.

وخلال مطالعتي عن طه حسين وقيادته في المجيئ بالحداثة في اللغة والثقافة العربية بلغت إلى نتائج شتى:

- خلال مطالعتي عن حياته عرفت أنه كان بريئا من الاتهامات التي تصوب كثيرا إلى شخصيته،ويرمى بأنه كان أيد حضارة أوربا وذهب على حضارة إسلامية. في الحقيقة لم تكن له علاقة مع تأييد حضارة ومخالفة أخرى،وهذا الاعتراض مبني على أن صاحبه لم يقف على حياته وأعماله ولم يعرف عن كتبه ومقالاته حق المعرفة.إنه قام بدعاية حضارة أوربا مع ما فيها من الحسنات والسيئات والإيجابيات والسلبيات في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر"،ولكنه في الصفحة التالية أنكر هذه الفكرة وأعرض عنها،وأكد

على أنه لم يرد إلا اتخاذ الحضارة الأوربية مع ما فيها من الحسنات والإيجابيات،أما المنكرات والمفسدات،فهي مما لا علاقة لها بفكرته،ومما لا يؤيد القرآن والسنة.هو أدى فريضة الحج وزار قبر النبي ﷺ،كذلك كتب عددا لا بأس به من الكتب عن تأريخ الإسلام وسيرة النبي ﷺ مثل على "هامش السيرة" و"مرآة الإسلام" و"الشيخان" و"المعذبون في الأرض" وغيرها وهذه العمليات تشهد له بأنه كان مؤمنا بالله ورسوله مثل الآخرين.

- إن الحداثة هي مصطلحة نسبية؛هي تتغير حسب الزمان والأيام،ما كانت من حداثة في الأيام الغابرة هي لم تكن في أيامنا هذه،وما تكون حداثة اليوم يمكن أن لا تكون غدا،وإن اللغة والثقافة العربية قد شهدتا النزاع بين المقدمين والمحدثين وأنصارهم من قبل،فلهما عهد قديم به،ومعرفة مسبقة عنه.
- قد أدى طه حسين دورا بارزا في تجديد ثقافة العلم والبحث في البلاد العربية،فجعل التعليم ضرورة لكل إنسان لا محيد عنها،وحاجة لكل فرد لا بد منها،وجعل التعليم مجانا لكل مواطن مثل الهواء والماء عندما صار أولا مستشارا لوزارة التعليم والثقافة ثم تولى منصب وزارة التعليم والثقافة عام 1950م.
- هو تأثر بفلسفة ديكارت،فلم يعتمد على ما قاله القدماء وما كتبه الآخرون،بل هو وضع كل معلومات موضع شك،ولم يقدم فيها رأيه إلا إذا فحصها بدقة ووزنها بميزان علمه وفنه،إنه كان صاحب هذه النظرية في البحث والاستقصاء،لأجل ذلك هو شك في حقيقة الأدب الجاهلي،وأنكر إلا أن معظم الأشعار منحولة.
- إن طه حسين قاد حركة التجديد في اللغة والثقافة العربية،وكان هذه الحركة ذات جوانب مختلفة ومناحي متعدد؛هو لم يصرف اهتمامه إلى تجديد اللغة العربية فقط بل هو حاول أن يكون اهتمامه بالثقافة العربية أيضا وخاصة ثقافة العلم والبحث والاستقصاء،بينما الآخرون من معاصريه حفل بموضوع واحد فقط مثل قاسم أمين ومحمد عبده وغيرهما.
- سعى طه حسين إلى الإتيان بالتجديد فيهما ولكن هذا التجديد لم يكن عنيفا وشديدا بمعنى أنه لم ينكر القدامة تمام الإنكار ولم يعرض عنها تمام الإعراض بل هو اتخذ

موفقا منه ما يكون موقف التوسط والاعتدال؛إنه كان صاحب نظرية أن التجديد لا يتم إلا إذا كانت القدامة وإذا كانت هناك توجد صورتها،وليس معنى الجدة أن لا نقيم للأسلاف و ما كتبوها الوزن ولا نعطي لها الأهمية.لأجل ذلك هو إذا رفض الأدب الجاهلي،فلم يرفضه تماما وكليا،بل أنكر من الشعر والنثر ما كان منحولا وما كان موضوعا،هو قبل وجود الأدب الجاهلي ولكنه ليس في صورة حديثة.

- إنه صار قائدا ورائدا لحركة التجديد لأنه سعى لها طول الحياة ومنذ أول الأمر إلى نهايته،هو دعا إليه عندما التحق بالأزهر وجاهد في سبيله إلى أن حانته المنية،ولا نجد مثل هذه المثابرة والاستمرار عند الذين برزوا في هذا العصر من الكتاب والمفكرين والشعراء.
- في هذا السبيل هو تحمل المشاق أكثر مما تحملها الآخرون،وقاسى من الآلام أكثر مما قاساها غيره،هو منع من البروز في امتحان نهائي للأزهر ولم يعط الشهادة،كذلك هو أقيل من منصب العمادة في جامعة القاهرة بعد أن خالف اقتراحات الحكومة لإعطاء شهادات الدكتوراة الفخرية للسياسيين من كانوا لم يستحقوا بها،هو اتهم بالكفر ووكالة الاستشراق لما أصدر كتابه في "الشعر الجاهلي" سنة 1926م،حتى اضطر إلى أن يسحبه من السوق وأن يحذف بعضها من مشتملاته،وأصدره مرة أخرى باسم "في الأدب الجاهلي".
- إنه نفذ ما فكر وما كتب،لأنه تولى مناصب كثيرة خلال حياته العملية، هو صار عميدا الكلية ثم مستشارا لوزارة التعليم والثقافة ثم وزيرا،ولم يوفق للآخر أن يبلغ تلك المناصب،فاستطاع أن ينفذ ما رآه صوابا في حق اللغة والثقافة العربية، وأن يرد ما لم يكن ملائما لهما ومناسبا لأصحابهما.
- هو خالف أشد المخالفة وأعنفها أن تكون اللغة العربية لغة دارجة وأن تكون فيها موضعا ما للغة العربية العامية،لأنه رآه خلافا للقرآن والحديث وضد ما ورثه عن الأسلاف الكرام من الأدب القيم والعلوم الكثيرة،كذلك هو ذهب خلاف من أراد أن تكتب اللغة العربية

بخط اللغة التركية أو أي لغة أخرى،وسعى في سبيل وقايتها وصونها من أثرات لغة أجنبية أخرى،كما هو وضح موقفه من الشعر الجديد، وقال إن أصحاب الجدة والحداثة إذا يريدون أن يجيئوا بالشعر الحر أو الشعر الجديد،فإننا نقبل هذا الإقدام لأن الشعر العربي و وزنه لم ينزل من السماء حتى لا نستطيع أن نغير أو نحذف ونضيف إليه شيئا،ولكن بشرط أن يكون لذلك الشعر تأثير في القلب والسمع وأن يكون فيه اختراع وإيجاد حسب المعاني،وإلا فلا فائدة في إعادة النثر وتسميته باسم الشعر.

- إنه اقترح على أهل العلم والفن أن يحاولوا في تسهيل قواعد اللغة العربية وخاصة قواعدها النحوية،وأن لا نسلك مسالك الأسلاف في تعلمها وتعليمها، حتى يتعذر على أحد أن يتقن هذه اللغة الفصيحة كتابة وتكلما،بل نتعلم من قواعد النحو ما تكون عامة ومتداولة جدا،أما المعرفة عن جميع القواعد وأصولها فهي لمن يريد أن يكون له الاختصاص فيها.

- إنه كان في حق تعليم اللغات الأخرى بجانب اللغة العربية وخاصة اللغة اللاتينية واللغة اليونانية،لأنهما من لغات العلوم والفلسفات والحكم،وقد خلفتا أثرا طويل المدى على الحضارة الإنسانية وأدتا دورا بارزا في تطويرها وترقيتها.
- إنه لم ير اللغة العربية لغة دينية فقط أو وسيلة لفهم القرآن والحديث فقط بل رآه لغة فصيحة وراقية مستقلة ذات علوم وفنون مثل لغات أخرى، إنها تستطيع أن تعبر وتجيد ما تجيد الأخرى،وتخترع ما تخترعه دون غيرها.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الجندي،أنور:المعارك الأدبية في مصر منذ 1914م_1939م،المكتبة الأجلو المصرية،1983م.
- الحكيم،توفيق:أدب الحياة،مكتبة مصر،3شارع كامل صدقي الفجا،سنة الطباعة ليست مذكورة.
- الزيات،أحمد حسن:تأريخ الأدب العربي،اتحاد بكدبو،ديوبند،الهند،سنة الطباعة ليست مذكورة.
- العقاد،عباس محمود:الثقافة العربية،دار نهضة مصر للطباعة والنشر،1996م.
- الفرج،نبيل:طه حسين ومعاصروه،دار الهلال16،محمد غر العرب،1994م.
- الندوي،تاج الدين محمد أيوب،شعر العرب من النهضة إلى الانتفاضة،(الطبعة الأولى)مطبعة البلاغ،دلهي الجديدة 2010م.
- الندوي،عبد الحليم:عربي ادب كي تاريخ،قومي كونسل براۓ فروغ اردو زبان،نئي دهلي،2009م.
- أبو عوف،عبد الرحمن:أوراق نقدية في الأدب،الهيئة المصرية للكتاب،القاهرة، مصر،2006م.
- أمين،أحمد:فجر الإسلام،المكتبة العصرية،بيروت،لبنان،2010م_1431هـ.
- أمين،أحمد:ضحى الإسلام (الجزء الأول والجزء الثاني)،المكتبةالتوفيقية،القاهرة،مصر،2009م.
- أمين،أحمد:ظهر الإسلام،المكتبة العصرية،بيروت،لبنان،2008م_1429هـ.
- بنت الشاطيئ،عائشة عبد الرحمن،لغتنا والحياة،دار المعارف، مصر،1996م.

- تيمور،محمود:مشكلات اللغة العربية، مكتبة الآداب ومطبعتها بالحماميزت، مصر،1990م.
- حسين،طه:الأيام،دارالمعارف القاهرة،مصر،2005م.
- حسين،طه:في الأدب الجاهلي،الطبعة الثامنة عشرة،دارالمعارف القاهرة،مصر،2005م.
- حسين،طه:مستقبل الثقافة في مصر،الطبعة الثانية،دارالمعارف،القاهرة،مصر،1996م.
- حسين،طه:حديث الأربعاء (ثلثة أجزاء)،دارالمعارف،القاهرة،مصر،1998م.
- حسين،طه:فصول في الأدب والنقد،الطبعة الرابعة،دارالمعارف،مصر،1969م.
- حسين،طه:الشيخان،دارالمعارف، القاهرة،مصر،2009م.
- حسين،طه:على هامش السيرة،دارالمعارف القاهرة،مصر،1961م.
- حسين،طه:مرآة الإسلام،دارالمعارف القاهرة،مصر،2003م.
- حسين،طه:الفتنة الكبرى عثمان،دار المعارف،القاهرة،مصر،2006م.
- حسين،طه:الفتنة الكبرى علي وبنوه،الطبعة الخامسة عشرة،دارالمعارف،القاهرة مصر،2006م.
- حسين،طه:من تأريخ الأدب العربي (الطبعة الأولى)،دارالعلم للملايين بيروت، لبنان،1970م.
- حسين،طه:تأريخ الآداب العربية،(الطبعة الثانية)دارالمعارف مصر،1970م.
- حسين،طه:مع أبي العلاء في سجنه،(الطبعة الخامسة عشرة)دارالمعارف مصر،1998م.
- حسين،طه:تجديد ذكرى أبي العلاء،(الطبعة التاسعة)دار المعارف مصر،1982م.
- حسين،طه:ماوراء النهر،(الطبعة الخامسة)دارالمعارف مصر،2004م.
- حسين،طه:من حديث الشعر والنثر(الطبعة العاشرة)دار المعارف،مصر،1969م.
- حسين،طه:الوعد الحق،(الطبعة السابعة والثلاثون)،دار المعارف،مصر،2004م.

- حسين،طه:مرآة الضمير الحديث،(الطبعة الخامسة)،دار العلم للملايين،بيروت، لبنان،1972م.
- حسين،طه:جنة الحيوان،(الطبعة الثالثة)،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،1968م.
- حسين،طه:من أدب التمثيل الغربي،(الطبعة الثالثة)، دار العلم للملايين،بيروت، لبنان،1969م.
- حسين،طه:شجرة البؤس،(الطبعة الثامنة عشرة)،دارالمعارف،مصر،2004م.
- حسين،طه:رحلة الربيع،(الطبعة الثانية)،دار المعارف،مصر،1948م.
- حسين،طه:من لغو الصيف،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،1972م.
- ضيف،شوقي:الأدب العربي المعاصر في مصر،(الطبعة الربعة)،دار العلم،مصر،1971م.
- ضيف،شوقي:تأريخ الأدب العربي،العصر الجاهلي،(الطبعة التاسعة عشرة)،دار المعارف،مصر،1996م.
- ضيف،شوقي:تأريخ الأدب العربي،العصر الإسلامي،(الطبعة الثانية عشرة)،دار المعارف،مصر،2005م.
- ضيف،شوقي:تأريخ الأدب العربي،العصر العباسي الأول،(الطبعة التاسعة عشرة)،دار المعارف،مصر،2008م.
- ضيف،شوقي:تأريخ الأدب العربي،العصر العباسي الثاني،(الطبعة الثالثة عشرة)،دار المعارف،مصر،2004م.
- ضيف،شوقي:تأريخ الأدب العربي،عصر الدول والإمارات الأندلس،(الطبعة الخامسة عشرة)،دار المعارف،مصر،2008م.
- ضيف،شوقي:في التراث والشعر واللغة،دار المعارف،مصر،1987م.
- ضيف،شوقي:في النقد الأدبي الطبعة التاسعة ،دار المعارف،مصر2004م.

- عبد المهدي،عبد الجليل،خميس،عبد الرحمن،ستيتية،سمير شريف:مذكرة في تأريخ الأدب العربي،مكتبة ماس،كاليكوت،سنة الطباعة ليست مذكورة.
- غضبان،عادل:اقرأ،مع طه حسين (الثاني)دارالمعارف،مصر ،يناير 1968م.
- كريم،سامح:ماذا يبقى من طه حسين،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، مصر ،2007م.
- مجموعة من الكتاب، طه حسين كما يعرفه كتاب عصره،مؤسسة دار الهلال،القاهرة،مصر ،سنة الطباعة ليست مذكورة.
- هيكل،أحمد،الدكتور:تطور الأدب الحديث في مصر ،(الطبعة الرابعة) دار المعارف،مصر ،1983م.
- يعقوب، لوسي:الأصالة والمعاصرة في فكر طه حسين،القاهرة الحديثة للطباعة،1989م.

قائمة المحتويات

- مقدمة 2
- **الباب الأول: اللغة والثقافة العربية** 7
- الفصل الأول: نظرة عامة على اللغة العربية 8
- الفصل الثاني: ثقافة العرب ومصدرها 28
- **الباب الثاني: الدكتور طه حسين حياته وأعماله** 44
- الفصل الأول: الدكتور طه حسين حياته وأعماله 45
- الفصل الثاني: الدكتور طه حسين كما يراه رجال الأدب والنقد 61
- الفصل الثالث: قيادته في المجيئ بالحداثة في اللغة والثقافة العربية 67
- **الباب الثالث: الحداثة في اللغة والثقافة العربية** 85
- الفصل الأول: التعريف بالحداثة ومصدرها في الأدب العربي 86
- الفصل الثاني: الحداثة في اللغة العربية 90
- الفصل الثالث: الحداثة في الثقافة العربية 113
- خاتمة 128
- المصادر والمراجع 132
- قائمة المحتويات 136

TAHA HUSSAIN AS A PIONEER OF MODERNITY IN ARABIC LANGUAGE AND CULTURE:

AN ANALYTICAL STUDY

Dissertation submitted to Jawaharlal Nehru University in partial fulfillment of the requirements for the awards of the degree of

Master of Philosophy

By

Hamid Raza

Under the Supervision of

Dr.Md.Qutbuddin

Centre of Arabic and African Studies

School of Language, Literature and Culture Studies

Jawaharlal Nehru University

New Delhi-110067

2015